# الفصل الأول

# حازم القرطاجني

# الفصـــل الأول

## حـــازم القرطاجنى

١ ـ كانت شمس الإسلام فى الاندلس قد بدأت تنحدر إلى المغيب وكانت الممالك النصرانية تتوحد وتقوى ، وقوة المسلمين تتفرق وتتخاذل ، والصراع بين القوتين يسير فى بطء إلى نهاية محتومة شاءها المسلمون لأنفسهم ، فأضاعوا بتكالبهم على السلطان والامارة حضارة سامقة ومجدا باذخا حين آلت الخلافة الاموية العظيمة إلى ما أصبح يعرف بدول الطوائف.

وحين سقطت طليطلة فى يد نصارى الأسبان عام ٤٧٨ هـ أخذت نذر النهاية الحزينة تتجمع فى الأفق حتى أنشد شاعرهم فى أبيات فزعة متوجسة :

| | |
|---|---|
| ياأهلَ أندلس شدوا رِحالكمُ | فما المَقَامُ بها إلا من الغلطِ |
| السلكُ ينشرَ من أطرافه وأرَى | سلكَ الجزيرة منثوراً من الوسط |
| من جاور الشر لم يأمن بوائقه | كيف الحَياة مع الحَيات فى سفط |

واستصرخت دول الطوائف المتهالكة دولة المرابطين التى قامت فى المغرب الافريقى وكانت فى أوج قوتها وذروة مجدها . فعبرت جيوشهم البحر والتقت وجيوش الاسبان فى معركة الزلاقة فى سنة ٤٧٩ هـ (١) . وكان انتصار المسلمين فى هذه الموقعة عظيما فأنعش فى نفوسهم الامل ، وأعاد إلى قلوبهم الأمن والثقة . ولكن دولة المرابطين فرضت سلطانها على الاندلس زهاء نصف قرن ثم ما لبثت أن تهاوت

---

(١) انظر أخبار هذه الموقعة فى الاستقصا ١/١١١ وما بعدها .

تحت ضربات الموحدين الذين استطاعوا فرض سيطرتهم على المغرب . وعبر الموحدون إلى العدوة الأندلسية فحازوها . وفى ظل الموحدين أحرز المسلمون نصرهم العظيم على نصارى أسبانيا بقيادة يعقوب المنصور الذى يذكرنا بانتصارهم فى الزلاقة أيام المرابطين ، وذلك فى موقعة الأرك المعروفة (٥٩٣هـ) والتى بلغ فيها القتلى من الاسبان ثلاثين ألفا (١) . ولكن شاء الله أن تدور الدائرة على المسلمين فى موقعة العقاب المشئومة (٦٠٩هـ) فواجهوا هزيمة كان لها أثرها الحاسم فى الصراع الإسلامى المسيحى فى الأندلس . وعادت نذر النهاية تتجمع فى الأفق من جديد ولكنها كانت فى هذه المرة أشد سرعة والحاحا ، وفيما بين انتصار المسلمين العظيم فى الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ وهزيمتهم المشئومة فى صفر عام ٦٠٩ كانت كل جراثيم التفكك والانحلال تتجمع لتفتك بالكيان الإسلامى فى الأندلس ، وبدأت الثغور الإسلامية تتساقط فى يد نصارى الأسبان فسقطت سرقسطة فى سنة ٥١٢ هـ وأصبحت جزءا من أملاكهم .

وفى ظل سيطرة النصارى على سرقسطة ولد أبو حازم محمد ابن حسن الأنصارى الأوسى ، ثم هاجر فيمن هاجر منها وانتهى به المطاف إلى قرطاجنة التى كانت ما تزال تحت حكم المسلمين فلم تسقط فى يد الأسبان الا عام ٦٤٠ هـ . وهناك قر قراره ، وولد له حازم فى عام ٦٠٨ هـ وذاعت نسبة حازم إلى قرطاجنة فما عاد يعرف فيما بعد إلا بالقرطاجنى (٢) . وكان أبوه على حظ من الفقه والأدب ، ولى قضاء قرطاجنة أربعين سنة ونيفا ، وما زال يتولى القضاء فيها حتى

---

(١) راجع أخبار هذه الموقعة فى الاستقصا ١/ ١٧٥ وما بعدها .
وانظر : عنان ، نهاية الأندلس ١٢ ، وتاريخ الأندلس للدكتور حمودة ٢٩٢ .

(٢) هناك احتمال آخر فى أمر هذه النسبة سنذكره فيما بعد . انظر الفقرة ٤ .

وافاه أجله فى عام ٦٣٢ هـ . ويحكى حازم عن أبيه أنه روى عن خاله أبى الحسن بن أبى العافية وعن القاضى ابن أبى جمرة وغيرهما (١) .

ويبدو أن حازما عاش من شبابه حقبة سعيدة فى قرطاجنة ومرسية فنحن نجده دائم التذكر لهذا العهد ذاكرا ما كان فيه من رغد العيش وهناءة البال واصفا مجاليه ومراتع أنسه ، ونكاد نحس من ذكر هذه المجالى والمراتع وتسميتها حنينا متدفقا لها وقد استغرق ذلك جانبا كبيرا من مقصورته ، كما نراه فى قصيدة أخرى يقول (٢) :

بجنّة الأرض همْتُ ياصاح ... فايسَ عنها الفؤادُ بالصَّاحى
تلك محلُّ النهور مرسية ... موطنُ أُنْسى ودارُ أفراحى
مرسىً كم ناعم وكم جذل ... بين البياضِ فيك والراح
« هابطةُ النَّهر » منك أذكرها ... من شط آعلاه « جسرُ وضاح »
فكلُّ حسن ما بين قنطرتى : ... « طبيرةٍ » منهما و« سياح »
سبعون ميلا كنا نجولُ بها ... بين جسورٍ وبين أدواح

ولما شب حازم تلقى عن أبيه نصيبا من الفقه والأدب ، وحفظ القرآن الكريم ، وتردد على مرسية ليأخذ عن علمائها حيث بدأت تتضح معالم شخصيته العلمية وتكوينه الثقافى فتلقى الفقه على مذهب الإمامين مالك والشافعى ، والنحو على مذهب البصريين ، واستزاد من علوم العربية وأدبها وأخبارها . « ولم تقف به همة البحث والدرس عند هذا الحد بل كان طموحه يدفع به إلى الاستزادة من ذلك ، والاخذ عن الأعلام المعروفين المقيمين بجنوبى الجزيرة . ودفعه توقه الشديد

---

(١) انظر التكملة لابن الأبار ٢/٦٣٣ – ٦٣٤ .
(٢) الديوان ٣٦ .

إلى الذهاب إلى غرناطة وأشبيلية فجمع من الأسانيد والإجازات ما جمع(١) واتصل آخر الأمر بشيخه الجليل عمدة الحديث والعربية الذى عرف بالانتساب اليه أبى على الشلوبين (٢) .

والشلوبين وان لم يعرف إلا بامامته فى النحو هو تلميذ ابن رشد وابن زهر وقد انتهت العلوم الحكمية إلى أولهما فصار فارسها المجلى فى عصره . ومن هنا نرجح – مع الدكتور ابن الخوجة (٣) – أن تيار الفلسفة الهلينية الذى هو ملمح من أهم ملامح تفكيره العلمى قد وصل إليه عن طريق مصنفات ابن رشد التى وجهها اليه أستاذه الشلوبين فصادفت هوى فى نفسه ، وانطلق يستزيد منها حتى قال عنه تلميذه ابن رُشَيْد – حسبما يروى السيوطى – أنه « ضرب بسهم وافر فى العقليات (٤) » . وبالرغم من أن أبا حيان يروى أنه « روى عن جماعة يقاربون ألفا (٥) » إلا أن ابن رُشَيْد يصفه بان « الدراية أغلب عليه من الرواية (٦) » . وعلى أية حال فهذا القول – كما هو معروف – لا يطعن

---

( ١ ) من الاجازات التى تشير إلى سعة ثقافته الدينية تلك التى كتبها و جيه الدين منصور رحمه الله لما استجازه :

انى أجزت لحازم بن محمد ... صدر الأفاضل والامام السيد
مجموع ما رويته فرويته ... عن ألف شيخ من شيوخ المسند
فى مصرها مع شامها وعراقها ... وحجازها من متهم أو نجد
وجميع ما صنفته وجمعته ... فى علم فقه الشافعى محمد
فليروعنى ما رويت رواية ... مشروطة بتوثق وتشدد
وليبق فى روض العلوم منعما ... بسعادة وسيادة وتأيد

( ازهار الرياض ٣ / ١٧١) . وتشير هذه الإجازة إلى أنه تلقى الفقه على المذهب الشافعى ايضا وليس على مذهب مالك وحده .

( ٢ ) مدخل المنهاج : ٥٣
( ٣ ) السابق : ٥٣–٥٤
( ٤ ) البغية : ٢١٤
( ٥ ) السابق .
( ٦ ) السابق .

فى ذكائه بل ربما يزكى قدراته العقلية فى مجال الابداع كما سنرى فى نتاجه الفنى والعلمى .

لبث حازم فى مرسية بعد انهيار سلطان الموحدين فى الأندلس وقيام دولة محمد بن يوسف بن هود الجذامى على أنقاضها سنة ٦٢٥ هـ حين انتقض عليهم ودعا للعباسيين ، واشتعلت الحرب بين ابن هود ومن جاوره وقامى فيها من الهزائم المتتابعة ، وكان من بينها معاركه مع السلطان الموحدى فى مراكش ، ولكن الهزات العنيفة التى تعرضت لها دولة الموحدين فى مراكش صرفتها عن حسم معركتها مع ابن هود فاستقر له الأمر فى شرق الأندلس حينا ثم عاد إلى حربهم فى سنة ٦٢٩ ودخلت فى طاعته سبتة ، واستتب له الأمر حتى كان ما كان من صراعه مع ابن الأحمر واستعانة هذا عليه بالافرنج . وفى هذه الحقبة المشحونة بالقلق والتوتر والحروب توفى أبو حازم سنة ٦٣٢ وكان حازم ما يزال فى العشرين من عمره ، فغادر مرسية وعبر إلى العدوة الغربية ، والتحق هو وأخوه أبو على ببلاط الرشيد الامير الموحدى فى مراكش .

ولا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد السنة التى غادر فيها حازم الأندلس ، فالدكتور ابن الخوجة يرى أن ذلك كان خلال عام ٦٢٣ هـ بعد وفاة أبيه (١) ، ويحدده الكعاك بأنه كان فى حدود ٦٣٧ هـ (٢) . على أننا نلحظ أن هذه المنطقة كانت على وشك السقوط فى يد الأسبان ، فقد كانت مرسية فى سنة ٦٣٣ من بين مواضع سبعة يحاصر منها العدو المدن الإسلامية (٣) . كما أننا نعرف أن قرطاجنة

---

(١) مدخل المنهاج : ٥٥ (٢) مقدمة الديوان : ج

(٣) انظر مقدمة الديوان : ب

مسقط رأس الشاعر قد سقطت فى يد الأسبان عام ٦٤٠ هـ وأعقبتها مرسية فى عام ٦٤١ هـ . وما نظن أن حازماً طالت به الاقامة حتى عام ٦٣٧ وهو يرى الخطر يدنو من بلده ويراها وشيكة الوقوع فى براثن نهايتها الرهيبة . أضف إلى هذا أنه أقام فترة فى مراكش وكانت له مدائح فى أميرها الرشيد وأنه كان فى عام ٦٣٩ قد وصل إلى تونس (١) . لذا نرجح — مع الدكتور ابن الخوجة - أن نزوحه من الأندلس كان عقب وفاة والده بوقت قصير أى فى خلال عام ٦٣٣ هـ ، وأنه أقام فى مراكش ما بين عامى ٦٣٣ و ٦٣٨ ثم انطلق بعد ذلك إلى تونس فاستقر بها إلى أن وافاه أجله .

٢ — وعندما التحق أبو الحسن حازم القرطاجنى بخدمة الرشيد أمير الموحدين لاثذا به من الأخطار المحدقة بالأندلس كان كالمستجير من الرمضاء بالنار . ذلك أن سيطرة الموحدين على المغرب الأقصى كانت تتعرض لضربات عنيفة من كل اتجاه ، فحروبها مع ابن هود كانت مستعرة — كما ذكرنا — حتى استطاع ابن هود أن يخضع سبته لسيطرته ، وبذلك هدد الموحدين فى عقر دارهم . كذلك انتقض على الرشيد — الذى لم يكن قد جاوز العشرين من عمره آنذاك — يحيى بن ناصر وأوقاريط ومسعود بن حميدان (٢) ، وما إن تمكن الرشيد من القضاء على هذه الفتنة حتى اشتعلت فتنة أخرى سعرها بنومرين (٣) فأوشكت دولة الموحدين على السقوط . وفى هذه الظروف لم يجد حازم بدا من الهجرة إلى مكان آخر . وكان أنسب الأماكن لهجره هو تونس .

---

(١) انظر مدخل المنهاج : ٥٥ .

(٢) راجع فى أمر الفتنة فى عصر الرشيد الموحدى الاستقصا ١—٢٠٠ — ٢٠٢

(٣) انظر الاستقصا : ٢/٢—٣

كانت دولة الحفصيين الفتية فى تونس قد بدأت تفرض سلطانها على سائر ما حولها . وفيما بين عامى ٦٢٥ و ٦٢٨ قامت هذه الدولة التى كان أمراؤها فرعا من الموحدين ، « ولم تعد تريد فقط صيانة استقلالها وسيادتها بل هى لوثوقها من مكانتها وصولتها فى المغرب أصبحت تفكر فى مد نفوذها على ما وراء بلاد إفريقية (١) » . وقد عاصر حازم من ملوك بنى حفص بعد أولهم أبى زكريا يحيى الأول ( ٦٢٨ — ٦٤٧هـ) أبا عبد الله محمد المستنصر الأول ( ٦٤٧ — ٦٦٥ ) ، وأبا زكريا يحيى الثانى ( ٦٧٥ — ٦٦٨ ) ، وتوفى فى عهد أبى حفص عمر المستنصر الثانى ( ٦٦٣ — ٦٦٤ ) (٢) . وعاش فى كنفهم ، ولقى منهم كل حفاوة وتكريم . واستأثر منهم بمعظم مدائحه أبو زكريا يحيى الأول وأبو عبدالله محمد المستنصر الاول . وكان يعبر فى مدائحه لهما عن أمله فى أن تعود الأندلس إلى المسلمين على أيديهما كما تنبئ عن ذلك قصائد كثيرة فى ديوانه .

٣ — هذه هى الأحداث التاريخية التى واكبت نشأة حازم وحياته الأولى فى الاندلس ثم هجرته إلى المغرب الاقصى ثم إلى تونس أو إفريقية . ويهمنا الآن أن نعرض بشئ من البيان للظروف الثقافية التى عايشها حازم فى المغرب الأقصى وتونس . والحقيقة أن بلاط الموحدين فى عهد الرشيد — بالرغم من اشتعال الحروب والفتن — كان زاخرا بالعلماء المهاجرين من الأندلس ، يذكر منهم الدكتور ابن الخوجة (٣) فقهاء ومحدثين كالتازى وابن الكماد ، ومؤرخين كابن فرعون وابن عبادة القلعى ، وخطباء وأدباء كالمزدغى

---

( ١ ) مدخل المنهاج : ٦٠

( ٢ ) عن سلسلة ملوك الحفصيين انظر : — زامباور : معجم الأنساب ١/١١٥-١١٦

( ٣ ) مدخل المنهاج : ٥٧ — ٥٨ ، ٦١ — ٦٥

وشعراء كنجم الدين الحسنى وابن القَطَّان والفزارى وابن الحنّاط والعُشْبى وابن زَغْبوش والطهرى وابن زنون وابن غالب وابن موسى والجيانى وغيرهم .

وأما فى تونس فنجد من العلماء المهاجرين ابن الأبار وابن الغماز والخلاسى وابن ديسم وابن برطلة الاودى والقمجى وابن سيد الناس وابن عصفور وابن الروقية وأبو حيان وابن سعيد والغرناطى وابن الحاج وكثير غيرهم . كما شمل نشاط هؤلاء العلماء فى تونس تخريج تلاميذ حملوا لواء العلم من بعدهم ومن أشهرهم (١) فى الحديث والفقه ابن البراء وابن الصانع والرعينى وابن نفيس وابن الخباز ، وممن اشتهر إلى جانب الفقه بالشعر ابن زينون وابن بزيزة وابن عربية والليانى وابن أبى الدنيا وابن الصماط ، ومن النحاة والفلاسفة والمؤرخين والأدباء التجانى ، ومن المؤرخين والجغرافين الغسانى وابن الدباغ ، ومن اللغويين والنحاة ابن أبى الحسن الحميرى ، ومن الرياضيين ابن الكماد . ولا نعرف من تلامذة حازم على وجه الخصوص بسبب قلة المصادر (٢) إلا أبا حيان الأندلسى وابن سعيد وابن رشيد وأبا الحسن التجانى وأبا الفضل التجانى واللبلى وكذلك الكنانى وابن راشد القفصى وابن القوُبع .

ويتبين لنا من هذا كله نشاط الحركة الثقافية فى المغرب وتونس فى هذا العهد التى قامت على أكتاف العلماء الاندلسيين من أمثال حازم بعد أن هاجروا فى هذه الظروف التاريخية العصيبة التى مرت بالأندلس.

وهكذا عاش حازم حياة علمية حافلة فى تونس امتدت مايقرب من

---

(١) مدخل المنهاج : ٦٥ — ٦٨ .  (٢) السابق : ٦٩ — ٧٠

أحدى وخمسين سنة حتى توفى رحمه الله بها فى الرابع والعشرين من رمضان سنة ٦٨٤ هـ ( الموافق الثالث والعشرين من نوفمبر سنة ١٢٨٥ للميلاد ) .

٤ ـ وتبقى أمامنا فى هذا الموضوع مسألة لها خطرها .

فالواقع أن حازما معدود عند كثير من الباحثين من بين الشخصيات الأندلسية بحسب مولده ، والدكتور محمد مهدى علام يعده شاعرا عظيما من شعراء الأندلس ، وصفة « الأندلسى » تقترن باسمه فى نصوص كثيرة ، كما أن ديوانه صادر فى سلسة « المكتبة الأندلسية » . فهل كان حازم حقا هو بسبب أندلسية مولده ونشأته الأولى نتاج الفترة التى قضاها فى مرسية وقرطاجنة بالأندلس من حيث تكوينه الثقافى والعلمى ؟ .

هناك شبه اجماع على أن حازما القرطاجنى ولد فى قرطاجنة الأندلس ، وأنه اليها ينتسب لا إلى قرطاجنة تونس . ولن نجادل فى أمر نسبته ولكن الذى نريد أن نتوقف عنده هو تحديد المكان الذى استوت فيه شخصيته العلمية وصارت إلى ما صارت من بعد صيت ورسوخ قدم فى العلوم الأدبية والشعر أهو الأندلس أم المغرب العربى الافريقى : مراكش وتونس ؟ .

سبق أن استظهرنا من الخلاف حول تحديد السنة التى نزح فيها حازم من الأندلس أن نزوحه كان خلال عام ٦٣٣ هـ . وإذا كان هذا التحديد صحيحا ـ وهو فى الغالب صحيح (١) ـ فان حازما يكون قد بلغ عند نزوحه من الأندلس الخامسة والعشرين من عمره تقريبا

---

( ١ وعلى فرض عدم صحته فلن تتأثر القضية كثيرا فعلى أقصى احتمال يكون الفارق بين هذا التحديد والتحديد الذى ذكره الكمالك ثلاث سنوات تقريباً وهوفرق لايؤبه له .

ذلك أن هناك إجماعا على أن ميلاده كان فى عام ٦٠٨ هـ وأن وفاته كانت فى عام ٦٨٤ ، وبهذا يكون حازم قد قضى بالمغرب الافريقى احدى وخمسين سنه عاصر فيها طائفة كبيرة من العلماء المهاجرين من شتى جهات الاندلس والوافدين على الحفصيين من بقاع كثيرة فى العالم الإسلامى ، وهكذا امتازت هذه الفترة من حياته بالاحتكاك الثقافى بوسط من أرقى الأوساط العلمية ، فصنف فيها أشهر كتبه وأهمها وهو « المنهاج » ونظم فيها جملة شعره (١) ، وتلمذ له فيها عدد كبير ممن صاروا شيوخا فى العلم بعده .

وإذا أدركنا أن ذيوع صيته فى الناس وشهرته لم تبلغ أوجها إلا أثناء إقامته فى تونس إلى أن توفى بها فليس من المستبعد أن تكون نسبته إلى قرطاجنة راجعة فى جانب منها على الأقل إلى اقامته فى تونس (٢) ، أضف إلى ذلك أن نشأته الأولى فى هذه السن المبكرة بالأندلس وفى مرسية وقرطاجنة بالذات وهى من البلدان المواجهة للساحل الإفريقى لا نتصور أنها عزلته عن تأثيرات المغرب العربى الافريقى فالصلات الثقافية بين هذين الاقليمين كانت متينة دائما ،

---

( ١ ) من الطريف أن أكثر من تسعين فى المائة من شعره الذى يضمه ديوانه المنشور فى سلسلة المكتبة الأندلسية مقطوع بنسبته إلى تونس . دعك من المقصورة التى هى تونسية لاشك فى ذلك وهى ما هى طول نفس وروعة شعر .

( ٢ ) ليس هذا الرأى عاريا تماماً من الدليل . فالحقيقة أن من القدماء من قال بنسبته إلى قرطاجنة تونس ، يقول الدكتور مهدى علام ( البحث الأول : هامش ٢ ) :

« لابد أن يكون هناك من زعم أنه منسوب إلى قرطاجنة تونس ، إذ جاء فى حاشية الطيب على الاقتراح . فى أصول النحو : نسبة إلى قرطاجنة الأندلس لا إلى قرطاجنة تونس خلافا لمن زعمه » وهو فى رأينا استدلال موفق ، وينبغى أن نلحظ أن أكثر المصرين على نسبته إلى قرطاجنة الأندلس إنما هم من النحاة ، والنحاة دائما مولعون برد الأمور إلى أصولها فالمعتمد عندهم هو مكان الميلاد .

بل ان معظم أراضيهما قد عاشت لفترات طويلة تحت حكم سياسى واحد أيام المرابطين والموحدين . وكانت الأحداث السياسية فى أى منهما ذات تأثير بالغ على الآخر ، كما كانت هجرات العلماء من العدوة الافريقية إلى العدوة الأندلسية فى أول العهد ، وهجرتهم من هذه إلى تلك بعد الاضطهاد المسيحى للمسلمين ظاهرة مستمرة تتأثر فى مسارها بالظروف السياسية فى كل منهما . وهذه القضية هى من قبيل الحقائق التاريخية التى لا تحتاج لإقامة دليل عليها .

وخلاصة القول فى هذه القضية أن العدوة الأندلسية لم تكن منفصلة بحال من العدوة الافريقية ، كما أن حازما هو — فى المرتبة الأولى — نتاج الحقبة الطويلة التى عاشها فى المغرب العربى الإفريقى حتى إننا لا نتجاوز الحد إذا قلنا إن حازما أندلسى من حيث مولده ، وتونسى من حيث تكوينه الثقافى وشخصيته العلمية ، وهذه هى التى تهمنا والتى عليها مدار القول .

ولا يعنى هذا أن قلب حازم سلا عن حب الأندلس ، وأن وجدانه وعواطفه قد قر بتونس قرارها فما إلى هذا من سبيل مع نفس شاعرة حساسة تحن أبدا إلى موطنها ، وتطيف به فى أحلامها ونوازعها . ولكن تكوينه العقلى وهمومه العلمية وشخصيته الفكرية هى أمور وليدة الاحتكاك الثقافى بالعلماء الوافدين على تونس والمقيمين بها كما أنها أمور يدخل فيها حساب الزمن وطول الدربة والتمرس بالبحث والنظر العقلى وفى كل أولئك كانت بيئة تونس هى العامل الحاسم .

وبعد القول فى أمر حياته وما اكتنفتها من ظروف سياسية وثقافية فى بلدته وفى مهجره ننتقل إلى علاج ثلاثة جوانب من حياته العلمية

هى كل ما وصلنا عنه . وسنتناوله بالمدارسة فى الفقرات الثلاث الآتية شاعرا ونحويا وبلاغيا .

٥ — كان حازم فنانا شاعرا ، وكانت شاعريته موضع تقدير معاصريه ومن جاءوا بعده ، فمن بين معاصريه أبو حيان الذى يقول عنه « أوحد زمانه فى النظم والنثر (١) » ، وابن رشيد الذى يعتبره « حبر البلغاء وبحر الأدباء » وأنه « ذو اختيارات فائقة واختراعات رائقة (٢) » وابن سعيد الذى يرى أنه « شاعر مُجيد ، وحسيب مَجيد ، وشعره يطوى الأقطار ، وذكره منشور ، وهو فى نظمه طويل النفس ، منير القبس ، مقتدر على حوك الكلام ، مديد الباع فى ميدان النُّظَّام . لا يخلو من الالفاظ المبتدعة ، والمعانى المولدة المخترعة (٣) . وممن جاءوا بعده العماد الحنبلى الذى يقول عنه : « كان إماما بليغا ريان من الأدب » (٤) وابن الطيب فى حاشيته على الاقتراح يعتبره « الأديب البارع المتفنن »(٥)وهو فى رأى الدكتور مهدى علام « شاعر عظيم من شعراء الأندلس » (٦) ، اما مقصورته فقد نالت حظاً عظيماً من الاهتمام والاعجاب والدراسة ، ويشهد بذلك كثرة عدد شروحها التى ذكرتها المصادر القديمة ، فقد شرحها التجانى برسالة سماها « أداء اللازم نحو مقصورة حازم » ، وشرحها كذلك المحبى (٧) ، ويذكر حاجى خليفة فى « كشف الظنون » أن للمقصورة شرحا وضعه الشريف أبو عبد الله

---

( ١ ) البغية : ٢١٤ ( ٢ ) السابق .

( ٣ ) اختصار القدح المعلى : ٨ ( مخطوطة ٢٢١٥ تاريخ بالمكتبة التيمورية ) .

( ٤ ) شذرات الذهب : ٥—٣٨٧ — ٣٨٨ .

( ٥ ) مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٢٤ ورقة ٢٤ ( نقلا عن الدكتور مهدى علام ، المبحث الأول : ٣١ ) .

( ٦ ) المبحث الأول : ص ١ . ( ٧ ) مدخل المنهاج : ٨٣ — ٨٤ .

محمد بن محمد بن احمد الحسنى السبتى المتوفى سنة ٧٦٠ هـ ، وشرحا لجلال الدين المحلى الشافعى المتوفى سنة ٨٦٤ هـ ولم يكمله (١) . أما شرح الشريف الغرناطى المسمى « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة الذى يصفه الأمير فى حاشيته على المغنى لابن هشام بقوله هو « شرح جليل (٢) » فقد عنى فيه الغرناطى بمسائل البيان والبديع والنحو واللغة ، وتفصيل القول فى الرجال والمواضع كما عنى فيه بالمقارنة بين أبيات حازم التى لها نظير فى الشعر العربى (٣) . أما فى الحديث فقد اعتنى بها الدكتور مهدى علام ووصف حازما بأنه أبرع شعراء المقاصير وأطولهم نفساً وأكثرهم تصريفا للقول . (٤) .

هذه شاعرية حازم كما يقدرها معاصروه ودارسوه ، وسنحاول هنا أن ننظر فى شعره نظرة تجلى لنا بعض ما غمض علينا من ملامح شخصيته الانسانية . ذلك أن المعلومات التى ذكرتها المصادر المعاصرة واللاحقة له عن حياته الخاصة جد قليلة ، وأكثرها يكرر بعضه بعضا مع أنه لم يكن عندهم بالمغمور ولا بالمجهول ، ومن ثم لاحت لنا حياته وهموم نفسه غامضة مسرفة فى الغموض حتى تكاد تكون خافية علينا تماما ، فلعل اللجوء إلى شعره يظهرنا على لمحات من حياته النفسية فى موطنه وفى مهجره ، كما سنحاول أن نهدى بعض الملاحظات على شعره من حيث شكله ومضمونه مبينين دلالتها على الأزمة النفسية التى كان يعيشها حازم فى مهجره .

---

( ١ ) الكشف : ٢-٥٠٩ .
( ٢ ) حاشية الأمير : ٧٥
( ٣ ) طبعة القاهرة ١٣٤٤هـ .
وقد سميت فيه بمقصورة ابن حازم ، والراجح انه خطأ ، وان كان يحتمل أنه نسبه إلى جده الأعلى .
( ٤ ) المبحث الأول : ٢٢-٢٣ ، ٣٠

والذى لدينا من شعر حازم : مقصورته التى حقق نصها الدكتور مهدى علام ، ومجموعة من شعره نشرها عثمان الكعاك معتمدا على مخطوطة الأسكوريال وبعض ما تناثر من شعره فى المصادر المختلفة . ويقول محقق الديوان : « وشعره كثير وهذا الذى ننشره لا يمثل إلا جزءا ضئيلا منه (١) » ومع ذلك فلا مفر من الاعتماد فى هذه الدراسة على المقصورة والديوان حتى يتسنى نشر شعره كله فربما أتاح للدارسين مزيدا من التعرف على شخصية حازم ونفسيته .

ولعل أبرز ظاهرة نفسية يوحى لنا بها شعره أنه كان يعانى احساسا حادا بالغربة وحنينا جارفا وعنيفا الأندلس ، وقد هدتنا قراءة شعره وإنعام النظر فيه إلى هذا المدخل النفسى على الرغم من أنه لا يستعلن فى شعره وانما يظهر حييا متنقبا من حيث يريد هو أن يخفيه ، أو قل إنه يكبت هذا الشعور الحاد الذى ينبض به قلبه وينطف به كبده فيحتال هذا الشعور للظهور ، ويدفعه دفعا إلى البوح به ، فيخضع له ، ولكن بعد أن يستنفد كل عبقريته الصياغية لستره وتغليفه بكل ما وسعه من حيل أسلوبية تشف عنه فى أحيان كثيرة . وأما علة كبته لهذا الإحساس المتأزم بالغربة فمرده فى ظننا إلى أن خلفاء بنى حفص قد أكرموا وفادته ، وحاطوه بما هو أهل له من رعاية وعناية ، ووطئوا له أكناف الحياة فى ظلهم ، فربما حملوا حنينه وعبارته عن الغربة إن هو أظهرهما على تبرمه بالحياة بينهم وعلى ضيقه بالعيش إلى جانبهم . ثم إنه لا ملجأ له فى هذه الظروف القاسية إلا كنفهم ، ولا ملاذ له من الأرض إلا حماهم . فماذا تراه فاعلا مع

---

(١) مقدمة الديوان : .

نفسه : أيحملها على الكتمان أم يطلق لها فى البوح العنان ؟ إنهما لأمران أحلاهما مر . وإذن فعليه أن يحتال لهذا الطوفان العارم الذى يكاد يجرف أمامه ما أقامه هو من سدود بأن يتخذ له فى شعره مسارب تخفف من حدته ، وتكفكف من جيشانه ، ولا تستيقظ نظر ممدوحيه وأولياء نعمته .

ولعل مما ضاعف من إحساسه بالمرارة والألم أن أزمة النفى والهجرة ذات تاريخ طويل مع أسرته . فقد اجتاحت أمنها فى موطنها الاول بسرقسطة قبل أن يولد حازم ، إذ ولد بها أبوه — كما ذكرنا — بعد استيلاء نصارى الأسبان عليها ، ثم نزح منها إلى قرطاجنة حيث ولد حازم . ولا بد أن حازما قد سمع ورأى وأحس وقع هذه الأزمة على نفس والده . ولكنه كان حدثا فى فورة الصبا وغرارة الشباب ، فما كانت هذه الاحداث لتسيطر عليه وتوجه سلوكه فى هذه الحقبة المبكرة من حياته ، وخاصة عندما استقرت بأسرته الحال ،وولى أبوه القضاء ، وأدرك حازما حظ من اليسار والترف . ثم ما لبث أبوه أن مات ، وهدد النصارى مسقط رأسه فهاجر كما هاجر أبوه والذى لا شك فيه أن الأحداث التى قاساها أبوه كانت تعمل عملها فى نفسه وهو صبى ربما دون أن يدرى ، وأنها قد استيقظت من رقادها حين رفدها موت والده برافد من الحزن جديد . ثم كان مهجره إلى العدوة الإفريقية الحل الوحيد لأزمته وإن كان أشق الحلول على نفسه ففعل . لذلك نراه فى تونس يحن دائما إلى موطنه حتى إنه لايغير لباس أهل الأندلس طول إقامته فى تونس ، بل إنه يعمد إلى الجبة التى خلعها عليه المستنصر فيحاول أن يعيد تفصيلها على غرار أثواب

شرقى الأندلس ، وتكاد بعض عبارات هذه القصة أن تكون تعبيرا مباشرا عن تمسكه بعادات موطنه الأول وحنينه له ، روى الشيخ ابن الكاتب بجُاية قال : « كنت آويا إلى أبى الحسن حازم القرطجانى بتونس ، وكنت أُحسن الخياطة ، فقال لى : ان المستنصر خلع على جبة جَرْبية من لباسه ، وتفصيلها ليس من تفصيل أثوابنا بشرقى الأندلس ، وأريد أن تحل أكمامها وتصيرها مثل ملابسنا » (١) .

وهو دائما يذكر مراتع شبابه ومرابع صباه بالإعزازوالحب ولكنه يحتال لهذا الأمر حتى لا يثير مشاعر الحفصيين ، ونرى احتياله هذا فى بعض المواطن مكشوفا يشف عما تحته ، ولنقرأ قوله فى المقصورة(٢) :

بلغت آرابَ المنى فى دولة ... أولتْ يدى أسنى الأيادى واللها
فخليا فكرى يُقَضِّى أَرَبَاً ... من ذكر ماقد انقضى وما خلا
إن الزمانَ الناضرَ الطلقَ الذى ... كم قرّ فيه ناظرى بما رأى
أملأ سمعى ويدى من كل ما ... تهواه نفسى من غناء وغنى
فى بقعة كجنة الخلد التى ... يرى بها كلُّ فؤاد ما اشتهى
أقسم الأيام بين منظر ... ومسمع يسبى العقول والنهى
ومَنعم بمَطْعم ومَشرب ... يسبى العيون والأنوف واللَّهَا
ومركب لمأنس ومجلس ... فى مدرسٍ ومحَضْر فى منتدى

ثم ينطلق حازم بهذا التخلص المكشوف — والذى يحاول أن يستره أيضا برفع القصيدة المقصورة إلى مقام المستنصر — يبدى من

---

(١) الاحاطة : ١ / ٢٠٨ « وجربيه » نسبة إلى جزيرة جربة التى كانت تابعة لتونس أمام الحفصيين .

(٢) نص المقصورة : ٣٥ .

محاسن موطنه الاول ، ومرائى الجمال فى أرضه وسمائه ، ومعاهد أُنسه ولهوه ما يستغرق الجانب الأكبر من مقصورته وإنك لتكاد تحس وأنت تقرأ البيتين اللذين تخلص بهما إلى الوصف أنه يلقى من فوق كاهله عبئا. وينطلق حرا طليقا متمردا وكأنما عادت له ميعة الشباب وفورة الصبا فهو يتنقل خفيفا كالطير الغرد مفعما بروح المرح والحياة .

ويحس حازم أن الخليفة الحفصى ربما ساوره الشك فى إغراقه فى وصف جمال الطبيعة الأندلسية فظنه تعبيرا عن عدم رضا بواقعه وحياته الجديدة فيدفع هذا الشك الذى تكاد تحسه يقينا بقوله ان الأمير قد عوضه عن كل شى فقده وأن مضرته انقلبت إلى مسرة معبرا عن ذلك فى صياغة شعرية محكمة (١) :

وبين جنبىَّ فؤادٌ لم يَرُع ... جنابَه شيبٌ بفودىَّ بدا
لم يَعْدُ ماقد ضرَّه أن سره ... وأوجَبَ الحظُ له ما قد نفى
واعتاض عما قد أفات دهرُه ... بما أفاء من يد وما حبا
ظلُّ أمير المؤمنين عنده ... أنعمُ من ظلِّ الشباب والصبا
فان ذوى روض الصبا فجودَه ... يعيد غضا ناعماً ما قد ذوى
فلا تَظُنِّىَّ أننى آسى لما ... قد بزنى صَرْفُ الزمان وبزَا
قد مارسْت نفسى حالَىْ دهرِها ... فلم يَدُم سرورُها ولا الأسى

بل انه فى البيتين الأخيرين يكاد يفصح عن السبب الحقيقى فى تسليه عن فقد موطنه فهو ليس الخليفة اذن ، ولكنه تجربته الطويلة القاسية التى عاشها وعلمته أن صفاء المشرب لا يدوم ، وأنه لا بقاء للدهر على حال ، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمرا .

---

(١) نص المقصورة : ٧٠ .

وأما حزنه الدفين وعبارته الحارة عن ذات نفسه وما يعتمل فيها من مشاعر حادة متوترة فتكاد تنضح بها أبيات يقول فيها (١) :

قد وافقتنى أزمُنى وخالفت ... ولان لى عطْف الليالى وعَسَا
ولم تقصر مهجتى فى الجِدّ بل ... قصرنى جَدٌّ إذا شئت أبَى
يازمنا حفا المنى من بعدما ... قد كان وألى البرّ منه واحتفى
أنأيت يادهرُ المنى من بعدما ... أدنيتها فما عدَا عمّا بدا ؟
أمرّ لى دهرى وقد كان حَلاَ ... فليس لى بطائل منه حُلَى
ما يقظات العيش إلا حلم ... ولا مرائى الدهر إلا كالرؤى
والعيش طورا مشتهى مستمرأ ... وتارة مُسْتَوْبَلٌ ومُجْتَوى
وكيف تصفو لا مرئ معيشة ... ومورِدُ الدنيا مشوب بالقذى

ولكن ما سر هذا الحزن العميق والنغمات الآسية الشاجية ؟ . لا شك أن الاندلسيين فى تونس كانوا موضع حسد من كثير من أهل البلاد يرونهم واغلين قد ضيقوا عليهم بما أحرزوا من مكانة هم — فى نظر أنفسهم — أحق بها . وكانوا هدفا لمؤامرات ودسائس يزلزل أهونها قلوبهم فما لهم بتونس من قوة ، وما لهم بها من ركن شديد إليه يأوون . هذا إذن سر من أسرار القلق الذى يساورهم فى هذه الحياة الجديدة التى يختلط صفوها بكدرها . ولذا نرى شاعرنا يبكى إذا خلا لنفسه فلا تذوق عينه للكرى لذة (٢) .

أبكى لمعرفة العهد القديم وما ... أنكرتُ من خَطْبِ دهرطارقطار
شيبت مواردأُنْسى بعدما خَلُصت ... جِمَامها الزرقُ من شَوْبٍ وأكدار
كم أوجه للمنى غُرٍّ نعمت بها ... فى أزمن مثلها غُرٌّ وأعصار

(١) نص المقصورة : ٨٤ . (٢) الديوان : ٤٧ .

ثم انتحت أزمن بُهْمٌ مبدِّلةٌ حالا بحال وأطوارا بأطوار
ففرقت شمل أحباب وشملمنى وألّفت شمل أعداء وأشرار
ومذ تفرقت الآمال ما اجتمعت لى فى دجى الليل أشفار بأشفار

ويبدو أن حازما لذلك كان دائما يحاول إقناع نفسه بأن مقامه فى تونس ليس إلى غير نهاية ، وأنه سيعود إلى موطنه الأول يوما ما . وكان أمله فى العودة هو الفرجة من ضيق اليأس ، والمنقذ من ألم الغربة . فكثيرا ما تردد فى شعره ذكر هذا الأمل ، وكان يخلطه احتيالا — فيما نرى — بمدح الخليفة المستنصر مذكرا إياه بأنه هو الذى يرجوه الناس لهذه المهمة العظيمة (١) :

مُلِئت صدورُهم هوى وأمانيا ورأوا حميداً وِردَهم والمصدَرا
ورجوا لأندلس وأهليها بكم نصراً يدوم على الزمان مؤزرا
أنت الحقيق بأن تلبى صوتها وبأن تريق لنصرها كاس الكرى
وبأن تفوق مجُيب صوت زبطرة (٢) ويرد عصر هداك ملك الاعسرا (٣)
بشر بنى حمص (٤) وأندلس بما سيعيد منها عامراً ما أقفرا

وهو اذ يمدح المستنصر ويصف جيوشه ذات العدد والبأس تلح عليه فكرة العودة للأندلس فيرجو لدى هذه الجيوش النصر على نصارى الأندلس واستخلاص الاندلس من براثنهم (٥) :

عسى الله أن ينتاش أندلسا بها ويأخذ منها للهدى أخذ مُقْتَصِّ
فيضحى بها شرقُ الجزيرة مشرقاً وتطلع أنوار البشائر فى حِمْص

---

(١) الديوان : ٥١–٥٢ . (٢) يعنى به المعتصم فاتح عمورية وقصتها معروفة .
(٣) يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . (٤) هى أشبيلية .
(٥) الديوان : ٦٦ .

بل إن حازما يوحى للخليفة بأنه عزم على فتح الأندلس بالفعل ، وان الروم ويعنى بهم نصارى الأندلس تتقلب جنوبهم فى المضاجع خوفا وفزعا من جيوشه المنصورة . فيقول للمستنصر (١) : .

راعت نفوسَ الشرك منك عزائم ... تركت اخا عز حذارا شاكها
قد أوطنت نار الجحيم نفوسَهم ... من قبل أن يتبوأوا أدراكها
حتى لقد كادت قلوب الروم أن ... تنسى بذكرك خيفة إشراكها
وبأرض أندلس عزمتم روعة ... فرشت جنُوبُهم بها أحساكها

وثمة مظاهر لهذه الأزمة النفسية التى كان يعيشها حازم . فنحن نجد الإحساس الحاد بألم النوى والفراق وارتحال الأحبة ، وطول الليل وصحبة النجوم يسيطر على كل مطالعه الغزلية التى يفتتح بها مدائحه . ففى مطلع قصيدة يمدح بها المستنصر يقول (٢) :

عاد قلبَه طربُ ... حين زمت النجب
وانطوى على حُرَق ... قلبه لها نُهَبُ

ويقول فى مطلع قصيدة أخرى : (٣)

أجدَّت بمن أهوى بكورا ركائبه ... فليلى مقيم ليس تسرى كواكبه
كأن بشهب الأفق مابى فكلها ... يحاذر أن تخفيه عنه مغاربه
تَطَاوَلَ ليلى عندما شطت النوى ... بمن بسناه كان تُجْلى غياهبه

ويقول فى مطلع آخر مادحا ومبايعا أبا زكريا يحيى بن أبى حفص

منى النفس يدنى منكم والنوى تقصى ... فكم ذا يطيع الدهر فيكم وكم يعصى
يقرب فى حال التنائى مزاركم ... فيدنو وينأى بالخيال وبالشخص
وكنت تأولت « النوى » أنها « ثوى » ... وهل بعد نَص العيس أحتاج للنص

---

(١) الديوان : ٨٨ .
(٢) الديوان : ٢٥
(٣) الديوان : ١٦

وكثيرا ما تعتاده الذكرى فيعبر عنها فى أحد مطالعه (١) قائلا :

أَمِنْ بارقٍ أورى بجنح الدجى سقطا تذكرتَ من حل الأبارق فالسقطا
وبان ، ولكن لم يبن عنك ذكره وشط ، ولكن طيفه عنك ما شطا

أما القصائد التى يُمحضُها للغزل فهى آية من آيات الاحساس بلوعة الفقدان ، ولذعة الحيرة والقلق ، والامل فى الفرح بعد الضيق ، وفى انبلاج الصبح بعد ظلمة الليل ولنصغ إلى هذه النغمات الآسية الحزينة : (٢) .

وبكيت واستبكيت حتى ظل من عبراتنا بحر ببحر يمرج
ويقيت افتح بعدهم باب المنى ما بيننا طوراً وطوراً أُرتِجُ
واقول : يانفس اصبرى فعسى النوى بصباح ليل قربها يتبلجُ (٣)
فترقب السراء من دهر دجا فالدهر من ضد لضد يخرجُ
وترجَّ فُرْجة كل هم طارق فلكل هم فى الزمان تَفَرُّجُ

تلك هى الأزمة الحادة التى عاشها حازم ، والتى خفيت علينا من أخباره ووضحت لنا فى أشعاره . وهى أزمة نفس شاعرة قلقة اصطلح عليها من أرزاء الدهر ماناء بها وأبهظها ففاضت شعرا عذبا عليه مسحة من الأسى لا تكاد تزايله تخفق بها كلماته وتنبض بها بحوره حتى حين يعمد إلى اخفائها بضروب من البراعة واحكام الصناعة .

يبقى لنا من الكلام على شعره مجموعة من الملاحظات العامة نبديها على موضوعاته وأسلوبه وجميعها فيما نرى ظواهر عميقة

---

(١) الديوان : ٦٨ . وراجع أيضا القصائد ٢ ؛ ٣ ؛ ١٦ ؛ ٢٠ ؛ ٢٩ ؛ ٣٢ ؛ ٣٨
(٢) الديوان : ٣٠
(٣) كذا فى الديوان ولعل الصحيح . كربها يتبلج .

على الصورة النفسية التى تشكلت بها شخصيته ، فمن حيث موضوعات شعره نجد المدح يكاد يستغرق جل شعره ، وأن أكثر مدائحه انما وجهها لملوك بنى حفص أولئك الذين آووه ورعوه ، ورحموا محنته ، وقد روا نبوغه . فكنت تراه فى الأعياد والمناسبات يصوغ من المدائح ما يوفى مالهم عليه من فضل العناية والرعاية . ولكن المدح عنده ليس مدحا خالصا وانما هو نهزة لاستعراض مقدرته على الوصف والغزل والأخذ فى فنون من القول متنوعة . ويبلغ هذا الاتجاه قمته فى مقصورته التى رفعها إلى المستنصر وتابع فيها نهج الشعراء المقصوريين الذين جعلوا « من قصائدهم معارض شعرية عرضوا فيها كل ما استطاعوا عرضه من فنون الأدب والبلاغة (١) » . وهذا النهج من السمات الظاهرة — وان كان بصورة مصغرة — فى معظم مدائحه الأخرى كما يبين عن هذا ديوانه .

ونستطيع أن نلاحظ فى شعره أيضا مسحة من التدين نعرفها فى كثير ممن تحزبهم مصاعب الحياة فتلجئهم إلى حمى الله يلتمسون فيه من القرار والسكينة ما يهدئ نفوسهم ويؤمن روعاتهم . ومن ومن أشهر قصائده فى هذا الباب مدحة نبوية ضمنها أعجاز معلقة امرئ القيس من أبياتها : (١) .

تلا هدىً قد قال للكفر نوره « ألا أيها الليل الطويل ألاانجل »
نبى سورا ما قولها بمعارَض «إذا هى نصته ولا بمعطل »
لقد نزلت فى الأرض ملة هدية «نزول اليمانى ذى العياب المثقل »

---

( ١ ) الدكتور مهدى علام : المبحث الأول : ٢٠
( ٢ ) الديوان : القصيدة ٣٥

أتت مغربا من مشرق وتعرضت «تعرض أثناء الوشاح المفصل »
فصلى عليه الله مالاح بارق «كلمع اليدين فى حبى مكلل »

وإذا تركنا هذه القصيدة التى تدور على اظهار البراعة فى التوفيق بين صدور من عنده وأعجاز معلقة امرئ القيس وجدنا قصائد أخرى يغلب عليها طابع الوعظ والحكم الفجة . وشعره الدينى هابط بوجه عام فى قيمته الفنية لدرجة ملحوظة . (١) .

وأغراض الشعر عند حازم تقليدية فى عمومها وإن كنا لانعدم فى شعره لفتات جديدة جديرة بالاعجاب . ومن ذلك تصويره الخلق الشعرى وبنات الأفكار التى تخطر فى فكره فيلبسها من أسلوبه أروع لباس ، وهو موضوع طريف بالنسبة لأغراض الشعر العربى . وقد عالج هذا الموضوع فى مقطوعتين نلحظ عليهما نغمة من الفخر والاعتزاز بالنفس تكاد تلج باب الغرور . يقول فى أولى المقطوعتين (٢):

ملأتْ من أبدع الحكم دلوَ آمالى إلى الوَدَم
بنتُ فكر قُمْت إذ قدمت اتلقّيها على قـــدم
فارتوى منها على ظمأ خاطرى من مورد شَبِم
أصبحَتْ أولى بما نَسَبَتْ لى من الاحسان والكـرم

وأما الثانية فهى ذروة فى علاج هذا الموضوع وفيما تتضح به من غرور وتنفخ : (٣) .

بنتُ فكر لانظير لها صاغها من لانظير له
وأمد الله خاطـره بهـداه حين أعملـه

---

(١) انظر الديوان : صفحات ٣٤ ، ٥٨ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٢٠ .
(٢) الديوان : القصدة ٣٩ (٣) الديوان : القصيدة ٣٥

فحباها الله إذ كمُلتْ ما حباه حين كملَّهَ
وعلى الأقوال فضلهـا من على الأقوام فضَّله

ويتسم شعر حازم القرطاجنى فى مجموعه بسمتين بارزتين :

أولاهما احتفاؤه الشديد بالصياغة ويحشد ألوان البلاغة من بيان وبديع حتى ان القارئ له لا يجد صعوبة فى أن يسلكه فى سلك الشعراء الصياغيين من أمثال مسلم بن الوليد وأبى تمام . ويظهر الاتجاه البديعى واضحا فى كل قصائده تقريبا ولكنه يحتفى به فى بعضها احتفاء ظاهرا فيكاد يبنى القصيدة كلها أحيانا على لون بديعى بعينه . ومن القصائد التى بناها على التجنيس قوله يمدح الخليفة الحفصى (١).

غصن آس شربُه ماء شباب غير آسن كم مُلاح لى إفصاحاً عليه ومُلاحِن
ليس يُضْحى أفق أُنْسى من مُدَاج لى مداجن
ان أسرارى بسرّاد فى هوى البيض البوادن
أشتكى من نفَس عال به سرى عالن
ودمـوع مشبهَات جود يحيى وهو هاتن

وتزخر مقصورته بالمحسنات البديعية وقد اخترنا منها عفوا هذا المثال : (٢) .

لم يفتقد صاد بها وصادح إرواء احسان ولا حُسْنَ رُوا
مرتاحةٌ رياضهاً ، ممتاحةٌ حياضها ،من خير كف تجتدى
لما رأى أفضالها أفضى لها بما به وصى السِّماح وحفا
لا يمترى فى صدق بشرى بشره بكلِّ درٍّ من نداه يمترى

(١) الديوان : ١١٣ (٢) نص المقصورة : ٣٠ — ٣١

وثانية السمتين البارزتين فى شعره انعكاس ثقافته المتنوعة فيه فأنت تلمح أثر الثقافة الفلكية فيه حين يعمد إلى الكواكب والنجوم وما هى معروفة به من خصائص عند الفلكيين ليجعلها موضوعا للأوصاف والتشابيه الشعرية . انظر إلى قوله فى المقصورة : (١) .

كأن ضوء الصبح شهب غارة ... تقاذف الحُضْرُ بهن وارتمى
أوجست العقربُ منه نبأة ... فأمت الغربَ وجدت فى النجا
وركن الغفْر إلى الشهب التى ... أجفلن جماء غفيراً وانضوى
وأصبح السِّماك يزجى عرشه ... أمامه مخافةً أن يحتـــوى
ومد الميث أخوه رمحَه ... وقرب العَوّاء منه واشتلى
وقد عداه الليث عن نثرته ... وصدق الطرف إليه ودأى
وفرت الجوزاء من أمامه ... وقدم الحادى الثريا ومضـى
وقد أراد الحَمَلُ الحَمْلَ على ... حوت من الدلو عداه وثنى

هكذا فى حشد هو أقرب إلى استعراض المعلومات من الصياغة الشعرية .ويبدو أنه كان مفتونا بهذا النهج فى قصيدة أخرى يقول(٢):

وبدت على الشفق النجومُ كأنها ... شرر تطاير عن حريق مُلْتَظِ
والبرق قد رُقِمتْ به حلل الدجى ... وقد انبرى كالأرقم المتلظِّظ
والليث قد بسط الذراع ومدها ... من خوف ادراك السماك الملمظ
والجدى مثل الفرقدين يخاف أن ... يسطو عليه الليث سطوة مُحْفظ
وتقدم الحادى الثريا خيفة ... من ضيغم فى ثرها متلمظ
وتنكب الزوراء سعدٌ ذابحٌ ... يرمى النعام بأسهم لم توعظ
فكأن أسراب النعام بإثرها ... من خوف أسهمه دوات تحفظ

---

(١) السابق : ٣٦ – ٣٧ (٢) الديوان : ٧٤

ونجد مثالا لا لحاح الثقافة الفقهية عليه فى قوله فى المقصورة(١):

ما استبدل القلب فلا تستبدلى منه ولا ترضىْ بمالا يُرْتضى
ولا تبيعـــى خُلـــة بخُلَّـــة فان بيـــع المثل بالمثل ربـــا

وفى بيت آخر نراه يورد مصطلحات من علم الحديث على سبيل التورية فيقول : (٢) .

فقد أخذت صحيح الملك عن سند عال وأحكمته ضبطا واتقانا

ونلمح أثر المنطق والفلسفة فى مثل قوله : (٣) .

مقدماتٌ بانتاج لملككمُ قضت وأعطت به علما وايقانا
ومنتجاتُ قضايا بالخلافة قد قضت لكم وغدت فى الصدق برهانا
وحين أضحت له بالحق واجبة لم تلف فيها ملوك الأَرض إمكانا
هذا هو الحق والبرهان يعقده وانما ينكر البرهان من مانا

أما ثقافته اللغوية فديوانه ومقصورته شاهد عدل على أنه حاز منها قسطا كبيرا .

وتتمثل ثقافته الأدبية واللغوية فى شعره بشكل أوضح فى كثرة الاقتباسات والتضمينات من القرآن الكريم وأبيات الشعر العربى والأمثال العربية المأثورة على نحو يطلعنا على ثقافة عميقة تقضى لصاحبها التفوق والبراعة والدأب فى التحصيل . فمن تضمينه القرآن الكريم قوله فى المقصورة : (٤) .

لا تظلمى انسان عينى فى الهوى « فليس للانسان إلا ما سعى »

---

(١) انظر نقد الدكتور مهدى علام لهذين البيتين فى المبحث الأول : ٣ وما بعدها .
(٢) الديوان : ١١٩ (٣) السابق .
(٤) نص المقصورة : ٤٩

ونجد هذا الأمر شائعا فى قصائده كلها ، ومن أنصع الامثلة على هذا الاتجاه مدحته النبوية التى ضمنها أعجاز معلقة امرئ القيس والتى أوردنا مثالا منها آنفا . ومن أمثلة تضميناته الشعرية مع شئ من التصرف قوله فى صفة قصيدة له مضمنا قولا لعنترة(١):

وتغادر الشعراء تنشدُ بعدها « كم غادر الشعراء من متردَّم »

وقوله مادحا المستنصر ومضمنا قولا للنابغة : (٢) .

فلئن تقدَّمك الملوكُ فمثلما يتقدم الا صباحَ فجرٌ كاذبُ

فلأَنت بحر والملوكُ جداولٌ « ولأَنت شمس والملوكَ كواكبُ »

وقد نراه يضمن التشبيه القديم معبرا عنه بعبارته كما نرى فى قوله فى مقصورته يصف روضا ومضمنا تشبيه عنترة للذباب بالقادح : (٣) .

تباغمت فيه الظباء وانتجى ذبابه الحولى أخفى منتجى

ألقى ذراعا فوق أخرى وحكى تكلف الأجذم فى قدح السنا

وقد يأتى تضمينه على هيئة اشارة عامة لنص أو حادث قديم والأَمثلة على ذلك كثيرة لا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده (٤) ومنها قوله فى وصف شبابه الذاهب مشيرا إلى شعر لحسان بن ثابت(٥) :

وبكيت أيام الشباب كما بكى حسان أياما حَسُنَّ بجلق

---

(١) الديوان : ١٠٨ (٢) السابق : ١٥

(٣) نص المقصورة : ٨١

(٤) انظر على سبيل المثال الديوان : ص ص ١٥، ٣٢، ٤٠، ٤٣، ٨٩، ١٠٧، ١٠٨.

(٥) الديوان : ٨١ .

ومنها قوله مشيرا لبعض أبيات النابغة : (١) .

لو أن غسانا رأته أنسيت يوم السباسب فى الزمان البائد
وعهودَ جلق إذ تحييهم بها وسط القصور الحمر بيض ولائد

كما قد يأتى التضمين لأمثال مأثورة على نحو بين الفجاجة كقولة فى المقصورة : (٢) .

« قد بلغ الحزام طبيبه » وقد أفرط حتى « بلغ السيل الزبى »

وكلتا هاتين السمتين البارزتين فى شعر حازم — ونعنى بهما : احتفاءه الشديد بالصياغة والصبغ البديعى ، والاستعراض الذى لاشك أنه مقصود لثقافته المتنوعة المتعددة — توجب التأمل والنظر . ولقد كان يمكن أن تمر هاتان الظاهرتان دون وقفة لو أن حازما أخذ منهما بالقدر المعقول الذى لايبلغ حد التكلف الظاهر ، أو لو أنه اقتصر على استعراض ثقافته الأدبية اللغوية فهى بميدان الشعر أشبه .

أما إصراره على إضافة الفلك والمنطق والفلسفة والفقه ومصطلح الحديث وهى أبعد شئ عن مجال الشعر فهذا ما يحمل الباحث على أن يلتمس العلة . والباحث يكون أشد التماسا للعلة وبحثا عنها إذا علم لحازم رأيا أورده فى المنهاج حول المسائل العلمية وعلاقتها بالشعر فهو يقبح إيراد المعانى العلمية والصناعية فى الشعر لأنها — فى رأيه ليست من المعانى العريقة فى هذه الصناعة ، فالجمهور لا يعرفها

---

(١) الديوان : ٤٣ . ويشير فى البيت الأول إلى قول النابغة :
رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب
وفى الثانى إلى قوله :
تحيتهم بيض الولائد بينهم وأكسية الاضريج فوق المثانب

(٢) نص المقصورة ٨ : ٤

ولا علقة له بها ، وهى أيضا لا تقع من نفسه موقع الالتذاذ والتعجب كما تفعل المعانى الجمهورية . وهو أيضا يرى أن « المسائل العلمية يستبرد ايرادها فى الشعر أكثر الناس. ولا يستطيب وقوعها فيه إلا صار من شدة ولوعة بعلم ما بحيث يتشوف إلى ذكر مسائل ذلك العلم ، ويحب إجراءها ولو فى بعض المواطن التى لا تليق بها ولا تقبلها البتة (١) » . ويخرج حازم من هذه المناقشة بقوله : « فقد بان أن مستعمل هذه المعانى العلمية فى شعره بسئ الاختيار مستهلك لصنعته ، مصرف فكره فيما غيره أولى به وأجدى عليه . (٢) .

إذن ما حل هذا التناقض بين الموقف النظرى والموقف التطبيقى عند حازم ؟ إن حازما نفسه — فى فلتة قلم — يحل لنا هذا التناقض بقوله فى المنهاج : « وانما يورد المعانى العلمية فى كلامه من يريد التمويه بأنه شاعر عالم (٣) » . فهذه الظاهرة إذن عرض من أعراض احساسه الحاجة إلى تأكيد ذاته وفرض شخصيته على المجتمع الذى يعيش فيه غريبا مهاجرا . فقد رأى فى هذا الاستعراض دعماً لمكانته ، واشارة من طرف خفى إلى سعة اطلاعه ورسوخه فى العلم ، ووسيلة ذكية لتعديد ما يحسنه من ضروب الثقافة وفنون الفكر التى قلما اجتمعت لإنسان فى عصره على هذا النحو . ولا عليه إذا حقق هذه الغايات ألا يستوفى شروط الصناعة الشعرية على وجهها . ومن ثم فان استعراض الثقافة اللغوية والأدبية فى شعره ينبغى ألا ينظر اليه على أنه أمر طبيعى لعلقته بالشعر ، وانما علينا أن ننظر إليه فى

---

(١) المنهاج : ٣٠ (٢) المنهاج : ٢١
(٣) المنهاج : ٣٠

ضوء هذه الظاهرة العامة التى تتنظم شعره كله . وهو بوصفه ناقدا مشرعا ينكر إيراد المسائل العلمية فى الشعر ولكنه بوصفه شاعرا يزاحم غيره على باب الخليفة ينبغى أن يحسن فى شعره مالا يحسنه غيره ، وأن يلوح فيه بما يجيده هو ولا يجيده سواه . أما بَرْد هذا الأمر وثقله فعلاجه عند الصياغة المحكمة والأسلوب المتقن اللذين أصبحا فى يده آلة مرنة طيعة .

هذه هى الظواهر التى تتسم بها شخصية حازم ونفسيته المتفاعلة مع ظروف حياته كما أوحى لنا بها تأمل شعره ، ولكن أهم ما يوحى به هذا الشعر هو حاجته إلى أن يدرس دراسة أوفى فى ضوء الفكر النقدى لحازم كما يمثله كتابه « المنهاج » لاكتشاف مدى التلاؤم أو التنافر بين فكره وشعره ولعلنا نوفق لهذا فى فرصة أخرى إن شاء الله .

٦ — كان أبرز أساتذة حازم القرطاجنى إماما من أئمة النحو المعدودين هو أبو على الشلوبين . وكان النحو من أهم العلوم التى لابد أن يتزود بها كل مشتغل بالعلم فى هذا العصر . ومن ثم تضلع حازم فى الدراسات النحوية على مذهب البصريين ، وصار معدودا من النحويين الذين يشار اليهم كتب فى الطبقات والمراجع النحوية كبغية الوعاة للسيوطى (١) ، ومغنى اللبيب (٢) لابن هشام الذى ذكره مستحسنا لأبياته فى المسألة الزنبورية ، وكذلك فى حاشية الشمنى (٣) ، وشرح الدمامينى (٤) . وقد جعله أبو حيان أوحد زمانه فى النحو واللغة . (٥) .

---

(١) البغية : ٢١٤
(٢) المغنى : ٥٧٥ وحاشية الأمير : الصفحة نفسها .
(٣) حاشية الشمنى : ١٨٩ — ١٩٠
(٤) شرح الدمامينى : ١٩٠ (٥) البغية : ٢١٤

أما نتاج حازم فى النحو فلم يصلنا منه إلا اسم الكتاب ألفه فى فى الرد على كتاب « المقرب » لابن عصفور . وقد سماه « شد الزنار على جحفلة الحمار (١) » . وليس لدينا علم بما فى هذا الكتاب وما عالجه من مسائل ، فقد اغتالته يد الضياع كما اغتالت كثيرا من آثار حازم وأخباره وأشعاره . والأثر النحوى الوحيد الباقى لنا هو منظومته النحوية التى صاغ فيها قواعد النحو فى شعر تعليمى . وتفارق هذه المنظومة غيرها من المنظومات التى تشبهها فى أنها من البحر البسيط وليست من الرجز ، وأنها موحدة القافية ، . وعدة أبيات القصيدة كما ورد فى الديوان المحقق مائتان وسبعة عشر بيتا لا مائتان وتسعة عشر بيتاً كما ينص على ذلك الدكتور ابن الخوجة . وقد ذكر السيوطى هذه القصيدة من بين آثاره فقال « وقصيدة فى النحو على حرف الميم ذكر منها ابن هشام أبياتا فى المسألة الزنبورية. وقد ذكرناها فى الطبقات الكبرى مع أبيات أخرى(٢)».

أما عدة أبيات القصيدة المعروفة قديما فقد أجمعت أكثر المصادر التى عرضت له على أن عدتها ما بين مائتين وعشرين بيتا ، قال بذلك الأمير فى حاشيته على المغنى ، (٣) ، والدمامينى فى شرحه (٤).

وتبدأ المنظومة بحمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، والدعاء لأمير المؤمنين أبى عبد الله محمد خليفة بنى حفص . فيقول : (٥) .

---

( ١ ) كذا فى مدخل المنهاج ص ٨٧ ( نقلا عن نفح الطيب نشر دوزى وآخرين ، ليدن ١٨٥٨ ) . وفى الطبعة المصرية بتحقيق محيى الدين عبد الحميد « شد النيار » ٥/٢٧٨ .

( ٢ ) البغية : ٢١٤ ( ٣ ) الأمير : ٧٥

( ٤ ) الشمنى : ١٩٠ ( ٥ ) الديوان : ١٢٣

الحمد لله معلى قدر من علما وجاعل العقل فى سبل الهدى عَلَما
ثم الصلاة على الهادى بسنته محمد خير مبعوث به اتسما
ثم الدعا لأمير المؤمنين أبى عبد الاله الذى فاق الحيا كرما

ثم يأخذ حازم فى مخاطبة المستنصر مادحا إياه بالكرم والبأس والشجاعة والعدل ذاكرا أياديه على الأندلسيين الذين ألجأتهم ظروفهم إلى أرض تونس : (١) .

فأقبلت نحوها للناس أفئدةٌ ترتاد غيثا من الإحسان منسجما
فكلهم حضروا فى ظل حضرتكم فأصبحت لهم الدنيا بها حلُما
قد نَد فيها الأسى عن أهل أندلس والأنس فيها عليهم وفده قدما
وأبدلوا جنة من جنة حرموا منها وقد بوّئوا فى ظلها حرما

ثم يخلص من هذا الحمد والثناء والدعاء إلى الأخذ فى نظم القواعد النحوية (٢)

أما على أثر حمد الله ثم على أثر الصلاة على من بلغ الحكما
وما تلا ذاك من وصل الدعاء ومن نشر الثناء على من أسبغ النعما
فاسمع لنظم بديع قد هدت فكرى له سعادة ملك أجزل القسما
حديقة تبهج الأحداق أن سطرت من نحوها نامم المنحو قد نسما

وقد صاغ حازم فى هذه المنظومة القواعد الخاصة بحد الكلام والنحو ، وتقسيم الكلام ، والمعرب والمبنى ، وأنواع العوامل حتى انتهى إلى باب الابتداء ، وانتهت القصيدة بذكر واقعة المسألة الزنبورية ثم بتعليق على هذه الواقعة فى صياغة حكيمة فيقول (٣) :

---

(١) الديوان : ١٠٢٤ (٢) السابق .
(٣) الديوان : ١٣٣

فكم مصيب عزا من لم يصب خَطَأً ... وكم ظالم تلقاه مظلما
والغبن فى العلم أشجى محنة علِمت ... وأبرح الناس شجواً عالم هضِمَا

وصياغة المنظومة طيبة فى عمومها ، وهى أشد وضوحا من غيرها من المنظومات النحوية كما تتميز بكثرة إيراد الأمثلة للقواعد ، ولا تكاد تلحظ عليها ما تلحظ على غيرها من تعمل وتكلف ولنضرب مثلا لذلك قوله فى أول ناصبات الأسماء : (١)

وناصبُ الإسم فعلٌ أو مُشابهُهُ ... فكن لمعرفة الأشباه ملتهما
والفعلُ منه مُعدًّى جاز فاعله ... لنصبِ مفعولِه مثل «انتضى ورمى»
ومنه غيرُ مُعَدًّى فى كلامهم ... كمثل «سال» اذا مثلته و«همى»
فذو التعدى إذا أحببت قسمته ... وجدته فى لسان العُرْبِ منقسما :
لناصب واحداً ، أوضعفَ ذلك أو ... ثلاثةً : بعضَها بعضاً قد التزما
فالناصباتُ لمفعول على حدة ... كثيرة «كوشى» أو «خاط» أو «رقما»
والناصبات لمفعولين فى نسق ... كمثل «ظن» وأعطى بابها انقسما
فباب «أعطى» : كسامنه ومنه سقى ... كما تقول : سقاك الله صَوْبَ سما
ومنه «أولى» و «آتى» مثل قولهم ... أولاك ربى نعيم العيش والنِّعما
كما تقول لمن تهوى النعيم له : ... أنالك النِّعم الوهابُ والنِّعما
وباب «ظن» «رأى» منه و «خال» وإن تصل بها «علم» اذكر بعدها «زعما»

وهكذا تسير القصيدة فى صياغة منسابة سلسة حتى نهايتها .

وتقويم الجهد النحوى لحازم محال فى ظل الامكانات التى بين أيدينا . وقد تكشف لنا الأيام عن كتابه المفقود أو كتب أخرى يستطيع الدارسون أن يحددوا بها مكانته بين رجال النحو التى نكاد نقطع

---

(١) الديوان : ١٢٦ - ١٢٧

بناء على ما لدينا من قرائن ـ أنها كانت ممتازة وعظيمة أما مكانته بين علماء البلاغة العرب فهو ما نملك الدليل على أنها كانت كذلك وهذا هو موضوع حديثنا فى الفقرة التالية .

٧ ـ مؤلفات حازم المعروفة لنا فى البلاغة وعلم القوافى هى : كتاب التجنيس وقد شرحه ابن رشيد كما يقول السيوطى (١) ، وكتاب فى القوافى قيل إن لابن رشيد شرحا له سماه « وصل القوادم بالخوافى فى شرح كتاب القوافى (٢) » ، وكتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » . ولم يصلنا من هذه المؤلفات إلا الشطر الأعظم من كتابه الأخير . ونحن ندين لهذا الكتاب بالفضل فى تعريفنا بحازم بوصفه عبقرية من العبقريات التى تمخضت عنها الثقافة الإسلامية ، ولدينا من هذا الكتاب نسخة وحيدة ناقصة من أولها بمكتبة الزيتونة فى تونس ومنها نسخة مصورة بدار الكتب المصرية وقد نشر الدكتور عبد الرحمن بدوى عام ١٩٦٢ المنهج الثالث من القسم الثانى من هذا الكتاب فى كتاب « إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين » ثم أعاد طبعه فى كتاب مستقل . أما التحقيق العلمى الكامل لهذا الكتاب فقد قام به الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة ، ونشر فى تونس ١٩٦٦ . —

ويكاد يكون هذا الكتاب من أخطر كتب النقد العربى القديم من حيث سعة أفق كاتبه وسداد نظرته ، وحسن تذوقه وتفهمه لقضاياه والصياغة التقنينية التى اتسم بها أسلوبه ، وتأثره بتيارات فكرية من خارج ميدان النقد الصرف . وقد عرف الدارسون قدر

---

(١) البغية : ٨٥

(٢) مدخل المنهاج : ٨٩

هذا الكتاب وقيمته حتى قال عنه الدكتور بدوى إنه فى المنهاج « لأول مرة نجد فى كتاب لأحد علماء البلاغة العربية الخلص – أعنى غير الفلاسفة – عرضا وإفادة من نظريات أرسطو فى البلاغة والشعر ، واستقصاء بالغا لها باهتمام وحسن فهم ورغبة فى التطبيق على البلاغة العربية والشعر العربى (١) . كما يرى الدكتور ابن الخوجة أن هذا الكتاب حسم الخلاف حول قضية تأثر النقد العربى بأرسطو(٢) ويرى الأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور أن كتاب حازم هذا من بين الكتب المشهورة التى يمكن أن تنزلها من العلم منزلة الأصول من الفروع أو منزلة فلسفة العلم من العلم كمنزلة رسالة الشافعى من علم الفقه أو منزلة مقدمة ابن خلدون من علم التاريخ(٣)، وهو بذلك «كتاب فى أصول البلاغة أو فلسفة البلاغة أو روح الصناعة كما اختار هو(يعنى حازما) ، ذلك بنفسه (٤) » . كما أنه تأصيل يخرج به « ما وراء البلاغة » من البلاغة كما يخرج « ما وراء الطبيعة » من الطبيعة (٥) » .

وهذه الأقوال صحيحة فى مجموعها . وهى تظهرنا على ما أصبح للمنهاج منذ عرف من قيمة عند الدارسين . ولكنا نريد أن ننوه تنويها خاصا بمجموعة من الظواهر التى دلتنا عليها أقوال حازم نفسه فى المنهاج ، وهى تعطينا فكرة واضحة عن عقلية حازم ذات الطابع العلمى المنظم وعن منهجها فى التفكير والمعالجة الذى هو جدير بالاعجاب والتقدير مما يضيف إلى أهمية الكتاب الموضوعية أهمية منهجية خاصة .

فقد كان حازم على وعى بأن مسائل البلاغة قد استغرقتها

---

(١) إلى طه حسين : ٨٦ (٢) مدخل المنهاج : ٣١
(٣) تقديم المنهاج : ٣١ (٤) السابق .
(٥) السابق : ١١ .

كتب كثيرة سبقته . فرأيناه يترك المسائل وتفصيلاتها الجزئية والفرعية ليتناول كليات البلاغة ، وروح الصنعة ، وهو يعبر عن هذا المسلك الجديد فيقول : « وقد سلكت فى التكلم فى جميع ذلك مسلكا لم يسلكه أحد قبلى من أرباب هذه الصناعة لصعوبة مرامه وتوعر سبيل التوصل إليه ، هذا على أنه روح الصنعة وعمدة البلاغة ..... فانى رأيت الناس لم يتكلموا إلا فى بعض ظواهر ما تشتمل عليه تلك الصناعة فتجاوزت أنا تلك الظواهر بعد التكلم فى جمل مقنعة عما تعلق بها إلى التكلم فى كثير من خفايا تلك الصناعة ودقائقها (١) » .

وحازم على إعجابه بالمعلم الأول نراه لا يتعبد به بل يرى أنه لو وجد هذا الحكيم أرسطو فى شعر اليونانيين ما يوجد فى شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الابداع فى فنون الكلام لفظا ومعنى ... لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية » (٢) .

وهو — على عكس كثير من المصنفين العرب — لا ينقاد للاستطراد . فللبحث عنده حدود وأسوار واضحة لا يتعداها إلا فى حدود ما هو مطلوب ، فنراه إذ يتعرض لقضية الأقاويل الصادقة والكاذبة فى الخطابة والشعر يقول : « رأيت ألا اشتغل بحصر الطرق التى بها يماز القول الصادق من غيره ، وتفصيل القول فى ذلك ، فان ذلك مخرج إلى محض صناعة المنطق » (٣) .

---

(١) المنهاج : ١٨ (٢) المنهاج : ٦٩

(٣) المنهاج : ٦٩

وثمة لفتة منهجية بارعة تنم على ذكائه وعبقريته ، فهو يشخص لنا سرا من أسرار الفوضى والاضطراب فى مناهج البحث العلمى ، ونعنى به استخدام مناهج وأساليب للتناول خاصة بعلم من العلوم فى تناول قضايا علم آخر ، ويرى أن لكل علم من العلوم مناهجه ووسائله الخاصة به ، فيقول : « وإنما وقع الغلط فى هذا لقوم من القدماء كانوا فقراء فى علم البلاغة على غنائهم من الرواية ، ولقوم من أبناء هذا الزمان هم أفقر خلق الله فى تلك وهذه ، ولمن يريد أن يستنبط قوانين هذه الصناعة من صناعة أخرى لعله لا يحسنها بله هذه ، وذلك غير ممكن فإنما يستنبط الشئ من معدنه ، ويطلبه فى مظنته » (١) .

وقد رأينا أن هذه الشخصية الفذة التى تمخض عنها الكتاب جديرة بالقاء مزيد من الضوء عليها ، وخاصة فيما يتعلق بقضية من أخطر قضايا الأدب ونعنى بها قضية مفهوم الشعر ، وطبيعته ، ووسائله الفنية التعبيرية وهى القضية التى أخلص لها حازم كتابه كله . هذا الكتاب الذى سنرى من خلال مناقشة دعوى تأثير كتاب أرسطو على الشعر فى كتب البلاغيين العرب أنه نسيج وحده بين نظرائه وأنه كما يقول الدكتور شكرى عياد : قمة من قمم النقد الأدبى العربى . (٢)

فقد بنى هذا الكتاب على التمييز بين طبيعة الشعر وطبيعة الخطابة فالشعر يتقوم بما سماه التخييل ووسيلته إلى هذا هى المحاكاة ، والخطابة تتقوم بالإقناع ووسيلتها إلى هذا الأقيسة .وكانت دراسته

(١) المنهاج : ١٠٣ (٢) الدكتور عياد : ٢٤٣

متوجهة للشعر أصالة والخطابة تبعا . ولذلك فان قضية المحاكاة والتخييل فى هذا الكتاب القيم تمثل جوهر فكرته وأساسها ، كما تشير إلى مصادر فكره النقدي وثقافته التى كونت شخصيته النقدية تكوينا فريدا بين علماء النقد والبلاغة العرب . وقد رأينا أن تركيز الضوء على هاتين الفكرتين وعلى أصولهما عند أرسطو وفلاسفة المسلمين ، وإبراز دور حازم في استخدامها نقديا تطبيقاً إنما هو ابراز لأعظم سمة علمية اتسم بها حازم ، وأفردت له مكانة خاصة بين سابقيه ولا حقيه . وفى عبارة أخري نقول إن دراسة هاتين الفكرتين هذا النمط من الدراسة انما هو دراسة للتكوين العقلى لحازم . وقد أفردنا لهذه الدراسة الفصلين التاليين . وجردنا أولهما لدراسة المحاكاة فى الشعر عند حازم ومصادرها الفلسفية ، وثانيهما لدراسة التخييل الشعرى عند حازم ومصادره .

والذى لا شك فيه أن السبيل الوحيدة المؤدية إلى فهم الفكر النقدى عند حازم القرطاجنى فهما دقيقا هى كتب الفلاسفة : الفارابى وابن سينا وابن رشد وليست كتب البلاغيين من أمثال قدامة وعبد القاهر وابن رشيق فلقد سلك الفكر الأرسطى إلى عقلية حازم طريقا عبدته الترجمات العربية لكتاب فن الشعر وشروحه وتلخيصاته . واستطاع حازم أن يتمثل هذه الأعمال العلمية تمثلا علميا ، وأن يخرج لنا ثمرة هذا التمثل الذكى فى كتابه « منهاج البلغاء » .

ويهمنا فى هذا المقام أن نشير إلى دراستين هامتين تتصلان بهذا الموضوع احداهما للأستاذ محمد خلف الله أحمد وكانت بعنوان « نقد لبعض التراجم والشروح العربية لكتاب أرسطو فى صنعة الشعر

( بوطيقا ) » نشرت فى مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٦ وأعيد نشرها فى كتاب بعنوان : « بحوث ودراسات فى العروبة وآدابها » صدر عن معهد البحوث والدراسات العربية عام ١٩٧٠ . أما الدراسة الأخرى فهى الدراسة التى قام بها الدكتور شكرى محمد عياد وقدم فيها تحقيقا لترجمة متى بن يونس لكتاب أرسطو مع ترجمة حديثة للكتاب ، وتناولت الدراسة أيضا كتاب أرسطو بين أيدى الفلاسفة وتأثيره فى البلاغة العربية والبلغاء ويعنى بهم المنشئين ، وسنعرض الآن لجوانب هاتين الدراستين عرضا هاما مع بيان للنقاط التى وردت فيها مما تعرض لها بحثنا هذا بالدراسة وما يمكن أن يعد فيه اضافة لهاتين الدراستين .

٨ — توخت دراسة الأستاذ خلف الله بيان مواطن الاتفاق والافتراق بين ترجمة متى بن يونس وكتاب أرسطو ومقارنتها فى هاتين الترجمتين بتلخيص ابن سينا وابن رشد للكتاب وذلك من خلال ترجمة حديثة لكتاب الشعر انجزها الأستاذ خلف الله والدكتور عاطف سلام. وقد أفدنا من هذه الدراسة فى نقطة بخصوصها ونعنى بها التقويم العام لهذه الجهود العلمية ووضع كل منها فى حاق موضعه بالاضافة للجهود الأخرى ، وان كانت هذه النقطة لا تتصل مباشرة بما نحن معنيون ببحثه هنا ، ذلك لأن اهتمام البحث بمقارنة الشروح العربية لكتاب أرسطو ونقدها صرفه وفاء لالتزامه المنهجى عن التعرض لتفصيل المسائل التى تضمنها كتاب الشعر وترجمته وشروحه وتلخيصاته ، فلم يفصل القول فى مفهوم المحاكاة والتخييل كما أنه لم يتناول بالدراسة تأثير هذه الترجمة وشروحها فى البلاغة

العربية ،ومن ثم لم يشر إلى جهود حازم القرطاجنى وهى موضوع الدراسة

وإذا شئنا تقويما لترجمة كتاب الشعر وشروحه من حيث تأثيرها فى فكر حازم النقدى – وهو ما يمكن أن تفيدنا فيه دراسة الأستاذ خلف الله – لاحظنا أنه تأثر أساسا بابن سينا فى معظم أفكاره حول المحاكاة والتخييل الشعرى ، وعنه أخذ أكثر نقوله ، ولم ينقل عن الفارابى إلا فى موضعين على حين أنه لم يذكر ابن رشد فى كتابه على الاطلاق بالرغم من توافر الدواعى لذلك ، ومن أن اطلاعه على تلخيص ابن رشد لكتاب أرسطو يكاد يكون مقطوعا به .

وقد رجح الدكتور بدوى أن ذلك المسلك من حازم هو إغفال متعمد لتظهر أصالته وامتيازه (١) ولكنا نرى أن العلة فى ذلك إنما ترجع إلى فرق ما بين طبيعة العمل العلمى الذى قام به ابن سينا تجاه كتاب الشعر الأرسطى وبين طبيعة نظيره ابن رشد . ويمكن أن نتصور أن تلخيص ابن رشد كان بداية منطلق حازم لقراءة الترجمات والشروح الأخرى إلا أن الذى نكاد نقطع به أن حازما تجاوز هذا المنطلق واستصغره حين قاس ما حشى به من خلط إلى ذلك العرض الناقد الذى قام به ابن سينا . والذى يتضح بأيسر نظرة لمن يقارن بينهما أن ابن رشد أفسد المفاهيم الأرسطية بل زيفها – على حد تعبير الدكتور بدوى – فى مواضع ، ونحل المعلم الأول ما ليس له . وذلك حين بذل محاولة لا تخلو من فجاجة لتطبيق ما فهمه من أرسطو على أمثلة من الشعر العربى لا تتصل من قريب أو بعيد بما ساقها للبرهنة عليه . فهو يحاول أن يمثل لفكرة التحول والتعرف –

(١) انظر « إلى طه حسين » : ٨٧

أو الإدارة والاستدلال كما يسميها تبعا لترجمة متى - بآيات من القرآن الكريم (١) ، ويفهم العقدة على أنها حسن الربط بين النسيب والمديح أو ما سمى فى البلاغة بحسن التخلص ، ويفهم الحل على أنه ما يسمى بالتخلص غير الحسن ويضرب لهذا مثلا قول زهير : دع ذا وعد القول فى هرم . (٢) .

وهذه حقيقة يجمع عليها كل من تعرض بالدراسة لتلخيص ابن رشد : فمن المستشرقين نجد « رينان » و « دى بور » كل أولئك نسبوا إلى ابن رشد الخلط فى أداء معانى أرسطو » (٣) . ومن الباحثين العرب الذين تناولوا هذا الموضوع الدكتور طه حسين وهو يعبر عن رأيه فى تلخيص ابن رشد بعبارة لا تخلو من سخرية فيقول : « ولن أتعرض فى هذا المقام لما كتب ابن رشد عنهما ( يعنى عن كتابى الشعر والخطابة ) فذلك غير خاف على القارئ من جهة ، ثم هو من جهة أخرى لايتفق بوجه من الوجوه ومعانى أرسطو ، ذلك لأن ابن رشد لم يفهم هذه المعانى فحرفها جهد استطاعته (٤) » . ومن ثم فان ابن رشد فى تلخيصه لكتاب الشعر كما يقول الأستاذ خلف الله « كان أمره عجباً ، فلا هو ترجم ( مثل ما فعل متى) ، ولا هو لخص فى شئ من محاولة الفهم الموضوعى الصحيح ( مثل ما فعل ابن سينا ) ولا هو ألف مستقلا فى النقد مثل ما ألف غيره من علماء

---

( ١ ) تلخيص ابن رشد : ٢٢٩

( ٢ ) تلخيص ابن رشد : ٢٣٠ ويطول بنا الكلام لو حاولنا استقصاء مظاهر هذا الافساد لمعانى أرسطو . وانظر أمثلة أخرى فى بحث الأستاذ خلف الله : ١٣٥ - ١٣٧ ، ١٣٨ - ١٤١ .

( ٣ ) الدكتور عياد : ٢١٥ ( ٤ ) أنظر الأستاذ خلف الله : ١٢٩

العربية متأثرين أحيانا بنظريات أرسطو ( كما فعل عبد القاهر الجرجانى ) (١) .

أما كلام ابن سينا فى فن الشعر فمن الصعب أن نعتبره محض ترجمة أو شرح أو تلخيص بالرغم من أن ابن سينا نفسه أطلق عليه هذه التسمية الأخيرة ولعل مفهوم التلخيص عنده كان يختلف نوعا من الاختلاف عن مفهومنا له . وأقرب التسميات لما قام به ابن سينا هو العرض الذكى المشتمل على شئ من النقد أحيانا ، فهو لا يلتزم التزاما مطلقا بايراد المسائل تبعا لنظام إيرادها فى كتاب أرسطو ، ومن ثم يقول الأستاذ خلف الله إن الظاهر من أول الأمر أن ابن سينا لا يترجم وانما يؤلف ويلخص ويشرح . (٢) وابن سينا أيضا يكاد يبنى كلامه كله على القول بالتخييل وهو فكرة لاوجود لها فى كتاب أرسطو . كذلك نلحظ ظهور آرائه الخاصة فى بعض المواطن ، فهو يبين عن فكرة اختلاف طبيعة الشعر اليونانى عن طبيعة الشعر العربى بعامة ، (٣) ومن حيث الخيال والخرافة خاصة (٤) ، ويسجل رأيا خاصا فى كليلة ودمنة يرى فيه أن هذا الضرب من محاكاة القصص والأمثال ليست بشعر . (٥)

ويتبين من ذلك كله أن اشتمال تلخيص ابن رشد على هذه العيوب القادحة جعله هدفا للمنقصة من جميع دارسيه حتى إن دى

---

( ١ ) السابق : ١١٧ ، ١٤٧ ( ٢ ) فن الشعر لابن سينا : ١٦٥

( ٣ ) السابق .

( ٤ ) يلاحظ أنه أورد ذلك فى مقابل تفرقة أرسطو بين الشعر والتاريخ . فقد أبان بذلك عن عدم فهمه الفكرة عند أرسطو.

( انظر بحث الأستاذ خلف الله : ١٢٦ ) .

بور يرفض الاعتذار له ويقول : « ينبغى ألا نسارع إلى معذرة رجل كان قاسيا على الناس فى نقده (١) . ثم أليس مما يستوجب الدهشة أن ابن رشد لم يشر فى تلخيصه إلى ابن سينا على الاطلاق ؟ وما نحسب أن كلام ابن سينا كان خافيا عليه وأنه لم يفد منه .

كل أولئك يرجح عندنا أن حازما إنما أهمل ذكر تلخيص ابن رشد لما رآه فيه من عيوب لانظنها كانت تخفى على مثله ، بل إن محاولة ابن رشد لتطبيق أفكار أرسطو على الشعر العربى — وهى التى يرى الدكتور بدوى أنها كانت جديرة بأن يفيد منها حازم — هذه المحاولة هى فى رأينا ربما كانت علة انصراف حازم عن الإشارة إلى ابن رشد لما تميزت به من الفجاجة الواضحة .

٩ — أما دراسة الدكتور شكرى عياد فهى دراسة تقع فى الصميم من المشكلة التى نتعرض لها بالبحث . وهى دراسة طريفة فى موضوعها ممتازة فى منهجها دقيقة فى أسلوبها ، كما أنها — فيما نعلم — من أوائل الدراسات التى اختصت بالبحث الترجمة العربية لكتاب أرسطو ، وحققته تحقيقا علميا أفادت فيه من أخطاء من سبقوا إلى تحقيقه من المستشرقين ، وقدمت ترجمة حديثة طيبة لكتاب أرسطو ، وجعلت من صميم هدفها دراسة أثر هذا الكتاب فى الفكر الفلسفى والبلاغى عند العرب ، وهذا ما نود أن نبين عن رأينا فيه .

درس الدكتور عياد أثر ترجمة متى بن يونس على تناول الفلاسفة العرب للشعر فى باب جرده لهذه الغاية (٢) مر فيه بالفارابى مرورا سريعا ثم عقد فصلا طويلا بالقياس إلى غيره من الفصول لعرض

---

(١) الأستاذ خلف الله : ١٢٩ (٢) د . عياد : ١٩٣ — ٢٢١

كلام ابن سينا فى فن الشعر وفكرة التخييل عنده ، ثم تناول بالعرض فى فصل ثالث تلخيص ابن رشد . وسنقف هنا عند عرضه لفكرة التخييل عند ابن سينا لنبدى على هذه الدراسة بعض ملاحظات نرى من وجهة نظرنا الخاصة . أنها مما يستدرك عليها . وسنبدأ بمناقشة مفهوم الدراسة عن العلاقة بين المحاكاة والتخييل ولنوضح وجهة نظرنا فى هذا المفهوم . .

من الملاحظ أن دراسة الدكتور عياد لم تميز بين التخييل عند ابن سينا والمحاكاة (١) أو أن الدراسة كما تقول عبارة الباحث تعتبر ان ابن سينا « يستعمل التخييل تفسيرا لكلمة المحاكاة التى وردت فى ترجمة متى » . (٢) وقد تأثر الباحث فيما ذهب إليه بتفسير بتشر Butcher للمحاكاة بأنها تخيل . إذهى « لسيت نقلا حرفيا عن الوجود الخارجى . وإنما هى تعبير عن وقعه على المخيلة » (٣) وهو يرى أن هذا التفسير شبيه بتفسير ابن سينا إلى حد كبير « لولا أن بتشر ينظر إلى عمل المخيلة عند الشاعر أو المتفنن وبذلك يتحقق فى تفسيره اتحاد موضوع المحاكاة بصورة المحاكاة أكثر مما يتحقق عند ابن سينا الذى ينظر إلى عمل المخيلة عند السامع أو المتلقى ، فتنحصر المحاكاة أو التخييل عنده فى عملية التعبير أى فى ذلك الجسر الذى يصل المتفنن بالمتأثر ، فالمحاكاة عنده تخييل على حين أنها عند بتشر تخيل »(٤) . هذا هو مجمل رأى الدكتور عياد فى التسوية بين المحاكاة والتخييل . وفى هذه التسوية فى رأينا نظر

---

(١) الدكتور عياد : ٢١٠ (٢) السابق : ٢٥٧

(٣) السابق : ٢٥٧ ، ٢٦٣ (٤) انظر لمزيد من التفصيل هذه الدراسة الفقرة ٢٣

فالمحاكاة من حيث موضوعها ووسائلها شئ ، والتخييل — الذى هو الأثر النفسى الناتج عنها — شئ آخر . أى أن المحاكاة وسيلة والتخييل غاية أو أنها مؤثر والتخييل أثر . ووثاقة ارتباط المحاكاة بالتخييل لما بينهما من علاقة السببية قد تجعل العبارة السينوية أو الحازمية — توهم أنهما شئ واحد ، فهو أحيانا يذكر كلمة المحاكاة فى معرض بيان أثرها وهو التخييل أو يذكر التخييل فى معرض بيان وسائله وهى المحاكاة ، ومن هنا يأتى اللبس . ولكنا ينبغى أن نذكر دائما أن ابن سينا — وحازما فى معظم الأحيان — يذكرهما دائما بأسلوب العطف ، والعطف كما يقول النحاة يقتضى الغيرية بل إن هذا الأسلوب ينتقل أيضا إلى عبارة الدكتور عياد نفسه . (١) وقد فصل أرسطو بين المحاكاة والاثر النفسى الذى تحدثه وطبيعتها فى المأساة يبين ما ينبغى أن تثيره فى المتفرج من مشاعر الرحمة والخوف ، وينبغى أن يكون ذلك دأبنا فى هذا البحث ، ذلك لأن التسوية بينهما أو اعتبار أحدهما مفسرا للآخر قد يدفع أحيانا إلى أن نتكلم فى أمور تخص واحدا منهما على أنها تخص الآخر . وهذا هو ما حدث فعلا فى دراسة الدكتور عياد ، فبعد أن عرض المقصود بالتخييل أى الأثر النفسى الذى يتغيا الشعر احداثه فى النفس على وجهه عاد يقول : « على أن هذه المعانى الواسعة للتخييل أو المحاكاة (٢) تضيق جدا حين يقسم ابن سينا أنواع المحاكاة — متأثرا بغموض ترجمة متى — إلى تشبيه واستعارة وتركيب منهما (٣) » وحل هذا التناقض الذى يشير اليه الباحث موجود فى

---

(١) الدكتور عياد : ٢١١ (٢) لاحظ هذا التعبير .

(٣) السابق : ٢٥٧

عبارة ابن سينا التى ذكر فيها ما سماه الباحث فى هذه العبارة بانواع التخييل أو المحاكاة تقول العبارة : « وأما المحاكيات فثلاثة تشبيه واستعارة وتركيب »(١) ، وبين هنا أن ابن سينا إنما يتحدث عن وسائل المحاكاة وهو إنما يخص المحاكاة لا التخييل وإذن فالجهة هنا منفكة ، ومعنى التخييل مازال قائما على سعته التى لاحظها الباحث وعبارة ابن سينا لم تضيق من هذا المعنى إذ هى لا تنصرف إلى التخييل ألبتة .

ولكى يتبين لنا فرق ما بين المحاكاة والتخييل على نحو أكثر وضوحا نقول إن لفظ المحاكاة يصدق على المحاكاة الجيدة والمحاكاة الرديئة لكن أولاهما يتحقق بها التخييل ولا كذلك الثانية .وهذا ما يقال أيضا فى شأن المحاكاة فى المأساة عند أرسطو فاذا استوفت المحاكاة شروطها أثارت مشاعر الرحمة والخوف عند النظارة وعكس هذا صحيح تماما . فمن ذلك يتبين لنا أن المحاكاة غير التخييل وإن كانت العلاقة بينهما وثيقة ومن ثم فقد أمحضنا لكل منهما فصلا يتتناول طبيعته وأحكامه ومصادره . وعلى ذلك لا يكون التخييل عند ابن سينا مقابلا للمحاكاة فى ترجمة متى ولكنه مقابل للرحمة والخوف فى المأساة . وكل ما بينهما من الفرق أن الرحمة والخوف غاية المحاكاة فى جنس بعينه وهو المأساة ، والتخييل غاية للفن الشعرى عامة أو الشعر المطلق كما يسميه ابن سينا . وسنعود إلى هذا الأمر بتفصيل أوفى فى كلامنا على التخييل ومصادرة الفلسفية إن شاء الله .

---

(١) فن الشعر لابن سينا : ١٧ .

والملاحظة الثانية على دراسة الدكتور عياد أنها بالرغم من التفاتها إلى المصدر النفسى لمفهوم التخييل عند ابن سينا (١) إلا أنها لم تبذل أية محاولة لدراسة نظرية ابن سينا عن مراتب القوى النفسانية ؛ وهو ما حاولنا أن نستدركه ، وقد أمكن لمحاولتنا هذه أن تضيف بعدا جديدا لمفهوم التخييل عند ابن سينا عن طريق الربط بين كلامه فى الشعر ونظريته فى النفس وسنعرض لهذا أيضا فى موضعه من البحث . (٢) .

أما أخطر قضايا هذه الدراسة فى نظرنا فهى قضية دعوى تأثير ترجمة كتاب الشعر فى البلاغيين العرب قبل حازم وهو ما نختلف فيه مع الباحث اختلافا جذريا . ذلك أننا نرى أن ثمة هوة عميقة فصلت ما بين الفلاسفة والبلاغيين المسلمين فى ميدان نقد الشعر ، فلقد احتفى الفلاسفة بنقد الشعر وقدموا لهذا اللون من النقد — من خلال شرحهم لكتاب فن الشعر الأرسطى — عطاء خصبا نعتقد أن البلاغيين لم يفيدوا منه الإفاد المرجوة إن لم نقل أنهم لم يفيدوا منه اطلاقا . وظل فكر أرسطو لا يمارس نفوذه على الفكر البلاغى فى نقد الشعر إلا من خلال المنطق أو نظريته فى الخطابة التى ترجم كتابه فيها فى فترة مبكرة كما كان فن الخطابة لا يختلف كثيرا فى أصوله بين اليونان والعرب ولا كذلك الشعر .وقد كانت العلة الوحيدة لاحتفاء الفلاسفة المسلمين بنقد الشعر هى كون المعلم الأول قد اهتم به ، ولولا ذلك لكان من المتوقع أن تصرفهم شواغل الاهتمام بمشكلات الميتافيزيقا وغيرها من الهموم الفلسفية عن

---

(١) الدكتور عياد : ٢٠٩ (٢) انظر هذا البحث الفقرة ٢٣

النظر فى مشكلات الشعر . وكان أولى الناس بالاهتمام بكتاب أرسطو فى الشعر هم البلاغيون الذين يعنيهم أصالة النظر فى الشعرونقده . وظننا أن حازما القرطاجنى هو أول من حاول محاولة جادة موفقة إقامة جسر تعبر عليه أفكار أرسطو كما فهمها الفلاسفة — وهذا قيد هام لا ينبغى اغفاله — إلى الشعر العربى ومشكلاته . وهذا هو جوهر الخلاف بين دراستنا هذه ودراسة الدكتور عياد . وهو ما سنبين عنه وندلل عليه فى الفقرة التالية .

١٠ — حين أراد الدكتور عياد أن يدلل على تأثير ترجمة كتاب الشعر فى البلاغيين العرب اقتضاه منهجه « أن يتتبع أفكار العرب عن نقد الشعر قبل أن يعرفوا الصورة المترجمة والملخصة من كتاب الشعر ، لأن معرفة المشكلات النقدية التى أثيرت قبل دراسة الشعر هى التى ستحدد مدخل هذا الكتاب إلى البلاغة العربية ، اذ لابد أن يستعان بأفكاره — إذا استعين بها — على حل هذه المشكلات ، ولا بد أن تمر هذه الاستعانة بعملية هضم وتمثل يمتزج فيه بغيره من المؤثرات . ثم إن لدراسة هذه الأصول التاريخية فائدة أخرى : وهى تميز خصائص التيارات الأولى فى البلاغة تمييزا يوضح لنا — بقدر الامكان — مبلغ ما بينها وبين تيار « الشعر » من اختلاف . وما بين التيارات التى وجدت بعده وبين تلك القديمة من نسب فنكون بذلك إذا رددنا شيئا من الاتجاهات البلاغية التى ظهرت بعد ترجمة الشعر وتلخيصه إلى هذا الكتاب انما نفعل ذلك على هدى واستبصار »(١).

وهذا الأساس المنهجى الذى وضعه الباحث هو فى نظرنا أساس طيب

---

(١) الدكتور عياد : ٢٢٦ .

من حيث النظر ، وإن كان قد شابه من حيث التطبيق ما يمكن أن نسميه باهمال التطور الذاتى للأفكار ، أو تولد أفكار جديدة من فكرة قديمة عن طريق الصراع الفكرى حولها ، ومن ثم سارع الباحث إلى رد بعض التطورات التى يمكن أن تكون تطورات طبيعية إلى تأثير ترجمة كتابى الشعر والخطابة وتلخيصاتهما . ولا يعنى هذا أننا ننكر أثر فكر ارسطو فى تطور الفكرة البلاغية عن نقد الشعر فهذا مالا يسع باحثا انكاره ولكنا نرى أن الكثرة الكثيرة من هذه التأثيرات انما مردها للمنطق والخطابة والقلة القليلة منها ربما تعود إلى كتاب الشعر وهذا تعبير فيه شئ غير قليل من الحذر لأننا لا نملك أن نجزم جزما قاطعا بشئ فى مثل هذا الأمر وإلا لنفينا — دون أن نحس غضاضة ما — أى تأثير لكتاب الشعر الأرسطى فى البلاغة قبل حازم . وسبيلنا إلى البرهنة على هذه الدعوى هى — ولا شك — مناقشة براهين الباحث (١) ، ونوشك أن نقول ان براهينه — أوطريقته فى البرهنة بعبارة أدق — هى التى دعمت ما نذهب اليه من قول مخالف .

فالذى يتتبع العرض التاريخى الذى قدمه الباحث للفكرة البلاغية عن نقد الشعر قبل ترجمة كتاب أرسطو وبعده يكاد يخرج بأن هذا التأثير كان أقرب إلى العدم منه إلى الوجود . فالباحث يبادر أول الأمر بإخراج ابن سلام — وهذا أمر طبيعى — والجاحظ وابن المعتز من دائرة التأثر بهذا الكتاب . ثم هو يرى أن الآمدى لم يأخذ من الفلسفة الأرسطية عموما إلا الشكل الخارجى أحيانا حتى إن قدامة

---

(١) أما براهيننا نحن على هذا فقد أمسكنا عن ايرادها لئلا نخرج بهذا البحث عن غرضه .

وهو أسبق منه كان أعرف منه بالعلة الصورية والتمامية للشعر (١) . ثم هو يرى أن كتاب الصناعتين لأبى هلال بعيد أيضا عن مجال تأثير هذا الكتاب . وسنورد هنا نصوصا دالة من كتاب الباحث على ما نحن بصدد بيانه وهذه هى :

(أ) « والاتجاه النقدى عند ابن سلام شديد الاتصال بعلوم العربية التى كانت ناشئة إذ ذاك (٢) » ... « ونحن نجد هذه النظرة الذاتية واضحة عند ابن سلام » .

(ب) « ولكننا نستطيع أن نقرر أننا لم نعثر فى كتاب البيان والتبيين كله على آثار يمكن أن يوصل نسبها بكتاب الشعر .(٣)»

(جـ) « ولا يمكننا أن نقتنع الآن بمدى تأثير كتاب الشعر أو البلاغة اليونانية عامة فى كتاب « البديع » لابن المعتز (٤) .

(د) « فالقارئ لكلام الآمدى قد يخيل إليه أن حكيما أو فيلسوفاً يتكلم فى الشعر لن يبلغ من تطبيق الفلسفة على الصنعة الشعرية أكثر من هذا المبلغ (٥) ولكن اذا أنعم النظر وقاس الكلام بمعايير الفلسفة الأرسطية وجده لم يأخذ من هذه الفلسفة إلا الشكل الخارجى . فهو لم يعرف منزلة العلة الصورية من هذه العلل الأربع ، وكأنه توهم من قولهم أن العلة الهيولانية هى الأصل وأن العلل الباقيات فروع لها (٦) » .

---

(١) الدكتور عياد : ٢٣٧ . (٢) السابق : ٢٣٨ .
(٣) السابق : ٢٣١ . (٤) السابق : ٢٣٢ .
(٥) يشير بذلك إلى الدكتور محمد مندور فى كتابه « النقد المنهجى عند العرب » وموضوع الكلام عن العلل فى الشعر .
(٦) الدكتور عياد : ٢٣٧ .

(هـ) « على أننا لا نستطيع القول بأن كتاب الصناعتين يحمل شيئا من طابع التفكير اليونانى فيما عدا الولع بالتعريف والتقسيم وليس كتاب الصناعتين فى ذلك إلا كأكثر الكتب التى نزعت نحو الروح العلمية فى ذلك العصر فى البلاغة وغيرها (١) » .

فماذا بقى لنا من البلاغة العربية بعد هؤلاء ممن أوردهم الباحث ورآهم دليلا على التأثر بترجمة كتاب الشعر ؟ ليس إلا قدامة وعبد القاهر وحازما .

فأما قدامة فان قضية تأثير الفكر اليونانى عامة عليه أمر لانشك فيه . فقد استخدم قدامة فى كتابه « نقد الشعر » الحد المنطقى فى تعريف الشعر كما استخدم فكرة التفريق بين المادة والصورة فى الشعر ورأى أن جودة الشعر إنما هى فى صورته : — أى صناعته وصياغته — لا فى مادته . وفكرة التفريق بين المادة والصورة يمكن ردها دون تكلف إلى الفلسفة الالهية وصلتها ببحث العلل واضحة مستعلنة ، وقد كفانا الباحث نفسه مئونه مناقشة صلة هذه الفكرة بكتاب الشعر فقال إننا « لا نلمح فيها أثرا مباشرا لكتاب الشعر (٢) » يستهان به من التكلف . ولكنا معنيون هنا بتتبع تأثير كتاب بعينه هو كتاب الشعر لأرسطو . فما الأدلة على تأثر قدامة بهذا الكتاب

يرى الباحث أن كتاب قدامة « يحمل آثارا قوية من الفكر اليونانى (٣) » . أما حظ كتاب الشعر من هذا التأثير فيتحدث عنه فى أسلوب العالم الذى يحتاط لأحكامه احتياطا يشكر له ، ولكنا —

---

(١) السابق: ٢٣٨ .
(٢) السابق : ٢٣٣ .
(٣) السابق .

ابتداء — نرى فى هذا الاحتياط الزائد فى العبارة شاهدا على أن الأدلة التى فى يده غير كافية لترجيح وجودهذا الأثر . وخاصة أنه يصف ما نجده من تأثيرات لكتاب الشعر فى بلاغة قدامة بانها « أصداء ضعيفة (١) » ويعلل لضعفها بان الفارابى لم يكن قد لخص كتاب الشعر بعد فكان على قدامة أن يتمثل أفكار « الشعر » ويلخصها فى آن (؟) . واما عبارة الباحث عن هذا الأثر فتقول : « وإذا كان مثل هذا الأثر قد وجد فيغلب أن يكون ذلك فى ناحيتين من بلاغة قدامة : فنون الشعر والغلو فى المعانى . فاما فى الفنون فقد ترك قدامة الفخر ونظر إلى الرثاء على أنه لون من المديح . ولعل ذلك صدى تقسيم أرسطو الشعر كله إلى محاكاة للأفاضل ومحاكاة للأراذل ، وهو ما عبر عنه متى بالمديح والهجاء . وأما فى موضوع الغلو الذى يقول قدامة انه وجد الناس مختلفين فيه مضطربين فى فهم معناه فإنه بعد أن يصرح بنصرته لمذهب الغلو يقول : ( وهو ماذهب اليه أهل العلم بالشعر والشعراء قديما ، وقد بلغنى عن بعضهم انه قال «أحسن الشعر أكذبه» وكذا نرى فلاسفة اليونانيين فى الشعر على مذهب لغتهم (٢) » .. ويرى الباحث إن اشارة قدامة تلك لاتصدق على كتاب آخر مما ترجم إلى العربية غير كتاب الشعر . ويسير فى هذا الاتجاه أيضا الدكتور ابراهيم سلامة فنحن نجد عنده الدليل نفسه . وان كان — بوجه عام — أكثر تحمسا لفكرة تأثير كتاب الشعر على قدامة من الدكتور عياد . بل إنه يرى أن قدامة « أدرك من غير شك كتاب الشعر فى أوائل ظهور ترجمته فاستأثر به وأخفاه

---

(١) السابق : ٢٣٤ .  (٢) الدكتور عياد : ٢٣٤ .

فى كمه ، وأخذ يتطلع اليه من وقت لآخر ليضع قواعد جديدة للشعر العربى (١) » .

ونحن نقول إن تعريف قدامة للشعر بأنه لفظ موزون مقفى دل على معنى ينفى — ابتداء — تأثر قدامة بكتاب الشعر وإن كان لاينفى تأثره بالمنطق اليونانى (٢) . فعدم التفاته إلى طبيعة لغة الشعر الخاصة به وإلى أن هذا التعريف لا يمنع دخول القصائد الرديئة والمنظومات والعلمية أمر يصطدم مع الصفحات الأولى من ترجمة متى ، وخاصة وأن صياغة متى لهذه الفكرة ممكن فهمها . ثم هى تعدُ من الأفكار لأولية وليست من الأفكار الفنية التى تحتاج إلى فضل مراجعة استيعاب . والدكتور عياد يلتفت إلى هذه الحقيقة فى قوله : « وإنه لمما يسترعى النظر أن التعريف الذى عنى قدامة بوضعه أول شئ تعريف لا يدل على حقيقة الشعر فى نظر أرسطو لخلوه من كلمة المحاكاة أو ما يؤدى معناها فهو ينطبق على كل كلام موزون مقفى له معنى ، وقد يدخل فيه الكلام المنظوم الذى يعمل فى العلوم وهو ضرب من القول عنى أرسطو باخراجه من مفهوم الشعر (٣) .

ومن هنا يكون حظ المحاولة التى قام بها الباحث لالتماس فكرة المحاكاة فى كلام قدامة فى النعت بالوصف من النجاح ضئيلا فهى انما تقوم على كلام حمال ذى وجوه . ثم هل يمكن أن يتأثر قدامة فى مبحث الغلو مثلا بكلام أرسطو عن المحاكاة فى التراجيديا

---

( ١ ) الدكتور سلامة : ١٤٨ .

( ٢ ) سنعرض فيما بعد لمفهوم الشعر بين شارحى كتاب الشعر والبلاغين . انظر هذا البحث الفقرة ١١ .

( ٣ ) الدكتور عياد : ٢٥٨

والكوميديا والملحمة كما يقرر الباحث ثم لا يتأثر بفكرة أرسطو فى تحديد مفهوم الشعر – على بدهيتها – بل يخالفها مخالفة صريحة ؟

أما الاستدلال بتقسيم فنون الشعر عند قدامة على تأثره بتقسيم أرسطو فأمر لا يسلم للباحث ، ذلك أن قدامة قد جعل من فنون الشعر النسيب والوصف والتشبيه فما موقع ذلك من القسمة الثنائية الأرسطية للشعر إلى محاكاة للأفاضل ومحاكاة للأراذل ؟ . ومن ثم يمكن أن نقتنع بأن هذا التقسيم يحمل ملامح أرسطية تسوغ نسبته إلى كتاب الشعر .

وأما فكرة الغلو فى المعانى تلك التى يردها قدامة إلى أهل العلم بالشعر والشعراء قديما وما بلغه عن بعضهم من قوله : أحسن الشعر أكذبه فقد ذكره قدامة بقوله « بلغنى » وهو أقرب شئ إلى أن يكون [ قالة تسقطها من بعض من كان لهم بذلك أثارة من علم . ثم ألا ينبغى أن نتساءل هنا : هل قال أرسطو فى كتاب الشعر – أو فى غيره – ان أحسن الشعر أكذبه ؟ .

على أن الباحث نفسه يتردد فى القطع باثبات تأثير كتاب الشعر على بلاغة قدامة فى هذه الفكرة فيقول : « أما قدامة فان كنا نرى فى حديثه عن الغلو ظلا للفكرة الأرسطية التى تقوم على أن مخالفة الواقع الخارجى مباحة للشاعر إذا كان سياق المستحيل فى قصصه يبدو وكأنه معقول أو كانت الحوادث نفسها متطلبة – أقول ان كنا نرى فى حديث قدامة ظلا لهذه الفكرة فهو ظل باهت يرجح أن ترجمة متى للفقرة التى نتحدث عنها كانت غامضة ملتوية ككثير من الفقر الأخرى وأن قدامة إذا كان قد تأثر بكتاب

الشعر فهو لم يتأثر بهذة الفكرة بل بما نراه مبثوثا فى ثنايا الكتاب من فهم للعمل الفنى على انه تصوير لأمور بالغة سواء أكانت فضائل أم رذائل تصويرا ينزع هو نفسه إلى الإتقان ويحاول أن يعطينا مثالا للشئ الذى يحاكيه (١) » . وقد استبعدنا هذه الفكرة الأخيرة فى موضع سابق .

وأما عبد القاهر فان الاستدلال على تأثره بكتاب الشعر فى القول بالتفرقة بين مادة الشعر ، وأن العمل الشعرى يكون فى صورة المعانى لافى مادتها (٢) — نقول هذا الاستدلال قد سبق الكلام فيه عند الحديث عن قدامة فهى فكرة كما يقول الباحث نفسه قريبة من قدامة (٣) . وأما التسوية بين هذه الفكرة وفكرة ابن سينا فى التخييل فأمر لا يسلم للباحث اطلاقا فقد اتفق عبد القاهر وابن سينا فى النتيجة ولكن الأساس عند كل منهما مختلف تماما عنه عند الآخر ؛ فابن سينا لم يبن رأيه فى أن العمل الشعرى قوامه الصياغة على أساس المادة والصورة كما أن عبد القاهر لم يصل إلى هذه المقولة عن طريق القول بالتخييل . بل إنا نجد عبد القاهر يستخدم كلمة التخييل استخداما لاصلة له بالمعنى السينوى على الاطلاق . وهو أمر سنزيده ، بيانا من جميع الوجوه الممكنة فى مكانه من البحث (٤) .

بقيت كلمة أخيرة فى هذا الصدد نسجلها تعليقا عاماً على هذه القضية فنقول لقد قرن الباحث فى دراسته بين قدامة ومتى بن

---

(١) السابق : ٢٦٧ .
(٢) الدكتور عياد : ٢٥٣ .
(٣) السابق : ٢٤٠ .
(٤) انظر هذا المبحث الفقرة ٢٤ .

يونس ، وهما متعاصران وبين عبد القاهر وابن سينا وهما متعاصران تقريبا . مع أنه فى أساسه المنهجى يقول إن الاستعانة بكتاب الشعر فى حل مشكلات النقد العربى ؛كان لابد أن تمر بعملية هضم وتمثل يمتزج فيه بغيره من المؤثرات(١)» . ونحن نرى أن المعاصرة بين الأفكار والرجال قد لا تسمح فى مثل ذلك العصر لما سماه بعملية الهضم والتمثل التى رآها لازمة للاستعانة بكتاب الشعر بأن تتم على نحو يحقق تأثيرا فعليا يكون جديرا بأن ننسبه إلى أى من المتعاصرين ويرشح لهذا ما نجده على وجه الخصوص بين فكر ابن سينا وعبد القاهر من خلافات جوهرية ألمعنا اليها إجمالا وسنعود اليها بالتفصيل كما ذكرنا .

وهكذا نجد العثور على تأثيرات لكتاب أرسطو فى فن الشعر فى البلاغة العربية قبل حازم لا يكاد يتفق للباحث فى يسر وإسماح ، ثم نرى أن الحق كل الحق كان فى عبارة الدكتور زكى نجيب محمود فى تقديمه لكتاب الدكتور شكرى عياد حين قال : « على أنه ليس يتحتم بعد تقديرنا للعمل المخلص الجادالذى قام به الدكتور شكرى ان نتفق مع الباحث فى استخلاصه نتائجه من مقدماته إذ قد يكون من رأينا أن من المستبعد أن تكون الآثار التى أبرزها فى حركة النقد الأدبى ناشئة من كتاب الشعر لأرسطو لما بين مادة هذا الكتاب الرئيسية وتلك الآثار من تباين شديد (٢) » .

ولكن الباحث ما إن يصل بالدراسة إلى حازم حتى نجد الكلام قد استقام له على الجادة ، ونجد صيغ التحفظ والاحتياط قد اختفت ،

---

(١) تقديم كتاب الدكتور عياد : ص (ل) . (٢) الدكتور عياد : ٤٢٤.

بل يقول فى عبارة حاسمة : « والحق ان تأثير كتاب الشعر فى منهاج البلغاء عميق أشد العمق . وأن حازما قد جهد أن ينتفع بهذا الكتاب أو بالصور التى عرفها منه أعظم انتفاع(١) » .

لذلك كله صح القول عندنا وجود قطيعة كانت بين شروح كتاب أرسطو وتلخيصاته وبين البلاغة العربية فى مجال نقد الشعر . وأن هذه القطيعة ظلت قائمة حتى جاء حازم القرطاجنى فصنع كتابه ذاك وقال فى شأن ما جاء به « وقد سلكت من التكلم فى جميع ذلك مسلكا لم يسلكه أحد قبلى من أرباب هذه الصناعة » (١) . وقد كان حازم شاعرا موهوبا وبلاغيا مرموقا ، كما كان مثقفا ممتازا أحاط بكتب الفلاسفة العرب وأفاد منها فتبنى آراء أرسطو وابن سينا فى الشعر على نحو مباشر وجاد ، وفصل القول فى تطبيقها وأضاف اليها فى هذا التطبيق إضافات خاصة .وقد ظل تفسير الفلاسفة المسلمين – وابن سينا خاصة – لآراء أرسطو هو عمدة جميع أفكار حازم القرطاجنى فيما يتصل بالمحاكاة والتخييل .

وسنجرد الفصلين التاليين للكلام على هاتين الفكرتين عند حازم ومصادرهما الفلسيفة .

---

(١) المنهاج : ١٨ .